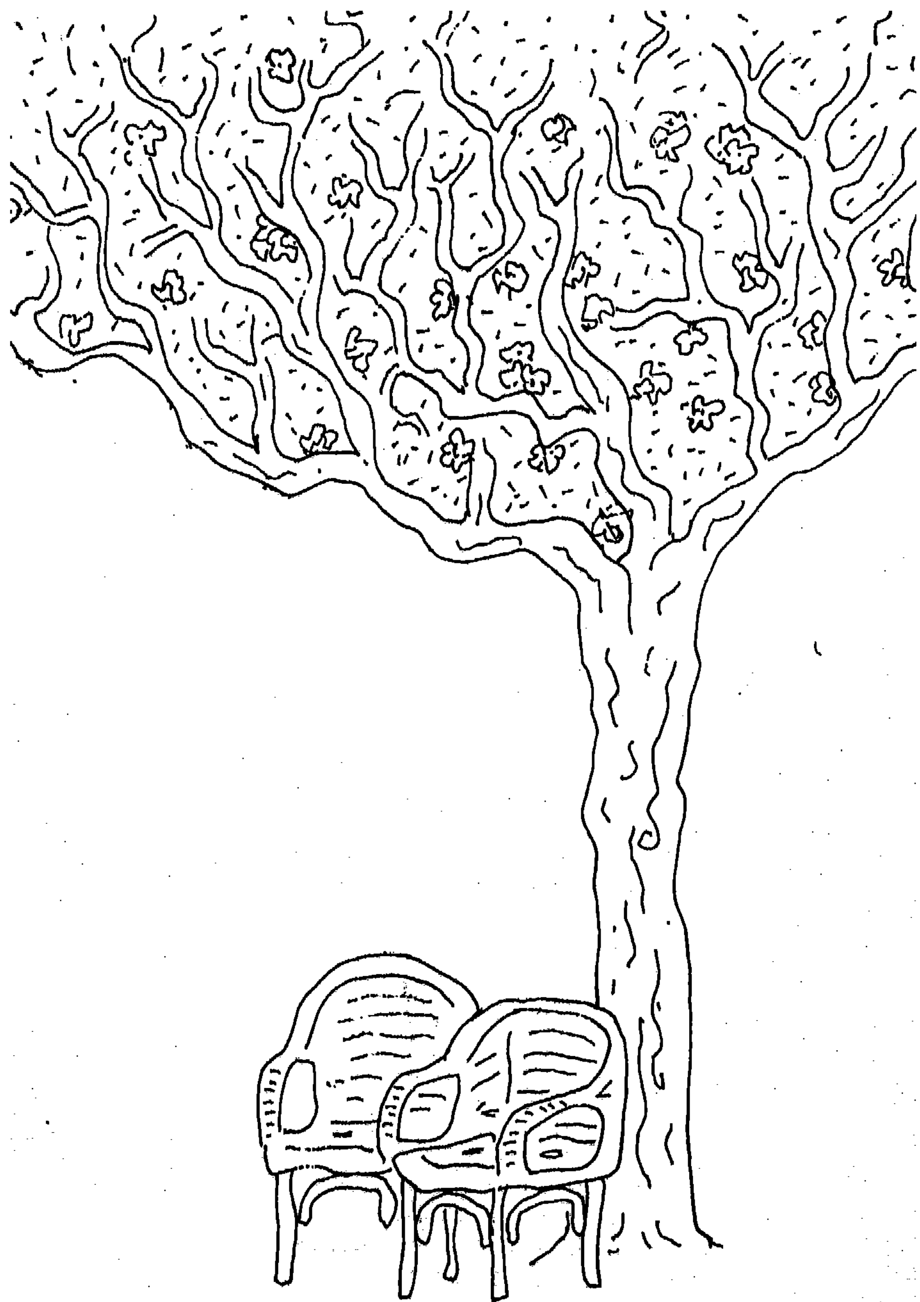
محمد عفيفي

ترانيم في ظل تمارا

دار الشروق



الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

© دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا داشروق
تلكس : SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق
تلكس : 93091 SHROK UN

SHOROUK INTERNATIONAL, 316/318 REGENT STREET, LONDON W1 UK TEL 6372743/4

TELEX SHOROK 267766

تقديم

هذا هو آخر ما كتب محمد عفيفي ، قبل أن ينتقل إلى ال
ولا شك أن عالم محمد عفيفي الآخر سيكون بمثل بساطة وجه
وصدق عالمه الأول ، عالمه الأرضي .. بيته وحديقته اللذين ·
حياته ، خاصة آخر أيامها ، يتأمل ما حوله بعين فنان و
وعين فيلسوف .

إن أجمل ما في هذا الكتاب هو نكران الذات الفني
التعبير ـ فعفيفي يكتب عن العالم من حوله ، وهو في وسطه
ولكنك لا تشعر لحظة بوجوده هو ، أي الكاتب ، إنه يحوّل
إطار أو نافذة سحرية متحركة ، يوجهها نحو تفاصيل وعنا
العادية ، فترى من خلالها العاديّ وقد تحوّل إلى شيء غير عاد
إلى عمل فني ، كل الأشياء إذا رأيتها من خلال نافذة مح
السحرية ، كل الأشياء ، تكتسي شفافية غريبة تبوح لك وتُظ

وأسرارها ، أسرارها الجميلة .. أو سرّ جمالها . كل الأشياء وأبسطها ....
بقع الضوء على مقاعد الحديقة ، أزهار الياسمين على بساط الغرفة ،
الوجوه والأشخاص في زهرات البانسيه ، القطط ، الكلاب ،
الحشرات .. العصافير .. الحياة .. المرض .. الموت .. كلها تتحول
إلى تماثيل بللورية شفافة ، يرفرف حولها فراشٌ أبيض يلمسها بأجنحة
رقيقة من أسلوب محمد عفيفي ، الذي يتنقّل بيسر وسلاسة وراحة تامة ،
بين العلم ، أو التفسير العلمي لظواهر الحياة وبين التأمل الفلسفي الفني
الساخر لتلك الحياة .

هل كانت هذه السطور هي دعاء محمد عفيفي الأخير ، هل
كانت دعاء وتسبيح فنان يتقرب من ربه عن طريق التأمل الفني في
بديع خلقه هو .. الفنان الأعظم ؟

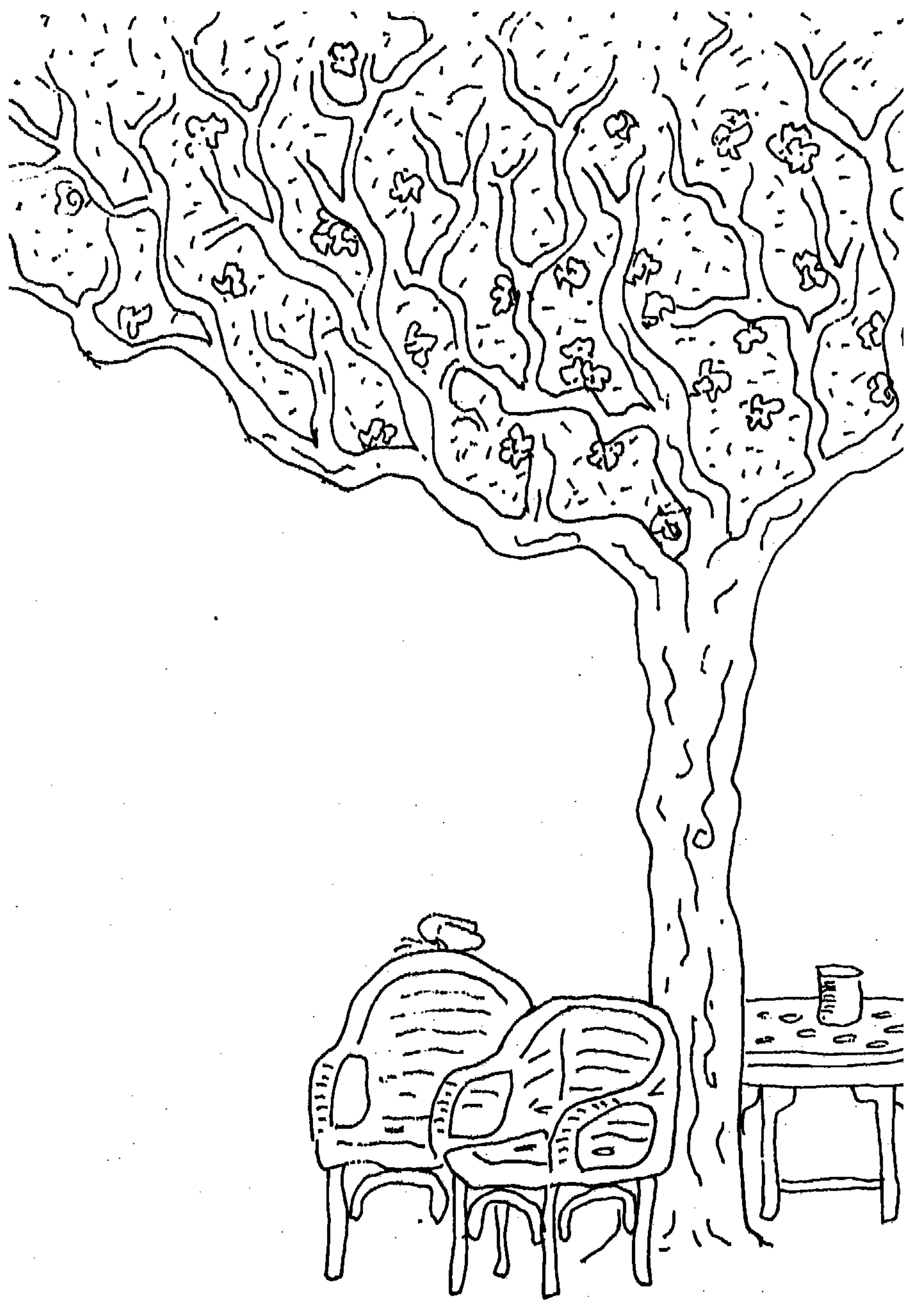
حلمي التوني



«على الكرسي القش الأصفر العتيق»

«ملاحظات في حديقة مشمسة على نماذج من الحيوان والطير والشجر وبعض بني البشر ، لرجل عجوز يجلس على الكرسي المذكور» .

محمد عفيفي





الفصل الأول

« فراشة جديدة كل يوم – ليمونة على دماغ القطة السوداء – التقلية ومغزاها – ماذا تقول العصافير – الضفدع الحائر – الشاي بنكهة من نور الضحى » .

الفراشة البيضاء

الفراشة البيضاء ومضت فوق السور النباتي المرتفع كعادتها كل صباح ، وكعادتي أسفت لأنني يجب أن استبعد ذلك الشعور اللطيف بأنها هي نفس الفراشة التي تزور حديقتي كل يوم . لكن أحداً لا يستطيع أن يصادر حريتي في الافتراض الذي يريحني ، وتلك الفراشة الواحدة الفرضية قد أسميتها بيني وبين نفسي فروشة . ورفرفت فروشة هنا وهنالك باحثة عن رزقها حتى جذبتها وليمة الألوان في حوض « البانسية » فألقت بنفسها فيها ، وعلى احدى الزهور حطت مبسوطة الجناحين تنهل في حب من عذب الرحيق . وكان بجانبها زهرة رسم عليها بالأصفر والبني وجه قرد صغير ضاحك ، وأخرى عليها طفل بنفسجي مذعور ، مكان لطيف لفراشة لطيفة بيضاء .

بجانبي حيث جلست على الكرسي القش الأصفر العتيق ، مستظلاً بصديقتي العزيزة تمارا ، التي من خلال أغصانها تتساقط عشرات من دوائر الضوء الصغيرة البيضاء ، وتنفرش حولي مثل قروش فضية متراقصة. على النجيلة الخضراء التي تكسو الأرض حولي ، وعلى الترابيزة المستديرة المصنوعة من الخشب الخشن الأبيض – الأبيض الغامق إذا جاز التعبير . وفوقها كوب الشاي الكبير الخزف البني ، الذي انكسرت أذنه من زمان فحمدت الله على الخلاص منها ، وقرش فضي سقط على سطح الشاي

متلاعباً كأنه عين تغمز ، سيكون لطيفاً أن أذوق شاي بنكهة من نور الضحى .

هنا أحب الجلوس في هذا الجو المعتدل من أوائل الخريف ، حيث أحظى من الشمس بدفئها دون لسعتها . فليس من أجل عطر تمارا أجلس تحتها ، لأنها قلما تجود بعطرها إلا قبيل الغروب والنهار يسلم المفاتيح للمساء . وأمينة دهشت عندما أخبرتها للمرة الأولى منذ سنوات أنني قد أسميت هذه الشجرة تمارا ، ولكنها لم تلبث أن قالت معترفة :

– طب والنبي لايق عليها !

فقلت لها شارحاً سر تلك التسمية :

– شجرة تمرحنة ح اقول لها يا ايه الا يا تمارا ؟

– وانت لازم تناديها باسمها ؟

– طبعاً ، عشان تعرف اني باكلمها هي .

وكانت أمينة تعرف أنني أحب أن أكلم الأشجار (غير متوقع منها أن ترد علي طبعاً) فاكتفت على سبيل التعليق بأن تصعبت وقالت مازحة :

– ربنا يكملك بعقلك !

وأما عن زهيرة فهي تعرف كيف بدأ اسمها . في أول الأمر بنزهيرة نسبة إلى ليمونها ، ثم أخذت الباء تذوب يوماً بعد يوم في أكواب العصير حتى أصبحت زهيرة .

وأغصان زهيرة تتلامس ، وفي بعض المواضع تتشابك ، مع أغصان جارتها تمارا في محبة وود أكيد . وكان طبيعياً أن تبدو مزهوة بما حملت من الحبات الناضجة الصفراء ، المنتفخة بالعصير كما يجب أن يكون البنزهير . وحكيم قديم زار مصر ورأى ليمونها فقال « عجبت لهؤلاء

القوم كيف يمرضون وعندهم الليمون ! » ولا شك أنه كان صادق الحدس في إدراكه لفضل الليمون من قبل أن يعرف الناس شيئاً عن الفيتامينات ، وما أظنه كان محتاجاً في استكشافه لقيمة الليمون إلى أكثر من أن يرفع إلى أنفه ليمونة صفراء كهذه ويشمها ، ما لم يكن قد حكها بظفره ومسح لحيته بما نضح على قشرتها من عصيرها الشافي ، فصار يملأ لنفسه كل يوم كوباً من العصير ويشربه على الريق ليزداد حكمة .

وعلى غصن من زهيرة حط عصفوران ، يتصايحان وفي بعض شئونهما يتجادلان . ولقد كنت زمان أظنهما يتغازلان كما زعم الشاعر ويتناجيان بأعذب الألحان ، حتى علمني طول الجلوس في الحديقة أنهما في حقيقة الأمر ، وفي معظم الأحيان ، يتخانقان ويتبادلان من الشتائم أوسخ ما يعرفان . ولقد حاولت أن أتخيل نوع الشتائم التي تتبادلها العصافير فعجزت عن ذلك ، وطلعت مليئة بالبذاءات البشرية التي تجعلني أنزه عنها ذلك الجنس اللطيف من الكائنات المجنحة .

وما لبث العصفوران أن طارا بعد أن هزا الغصن بقوة فأسقطا منه ليمونة كبيرة صفراء ، وكان سقوطها على دماغ القطة السوداء على بيضاء . ولعل هذا هو السبب في أنني أفضل الجلوس تحت تمارا عن تحت زهيرة ، فما أظنني أكون سعيداً بليمونة كبيرة في كوب الشاي الخزف البني . وكانت القطة قبل ذلك نائمة على النجيلة الخضراء تستمتع مثلي بدفء القروش الفضية المتراقصة ، ثم تنبهت على صوت العصفورين فرفعت رأسها وصوبت نحوهما عينين خضراوين ناعستين ، واختلجت شفتاها مع شاربها كما يحدث دائماً في مثل هذا الظرف ، مع نونوة خافتة مرتعشة هي التجسيد المرير لشوقها اليائس إلى هذا البروتين الطائر .

وناظرا إلى هذين الفكين المرتعدين كدت أسمعها تقول :

– يا رب ! خلقت لنا العصافير لكي نأكلها ونسبح بحمدك ، فلماذا يا رب – لماذا ! – خلقت لها أجنحة تهرب بها منا ؟ ؟

وكانت تلك هي اللحظة التي سقطت فيها الليمونة الصفراء على دماغها السوداء ، وربما كان ذلك عقوبة لها على اعتراضها على إرادة الخالق . فهبت مذعورة تتلفت حولها مستكشفة سر ما حدث ، ومدى لحظة ركزت بصرها علي أنا – بصفتي الشخص الوحيد الموجود – بنظرة اتهام خضراء . ثم انها ما لبثت أن نسيت كل شيء عن الأمر فباعدت بين فكيها كالكهف وتثاءبت . وطبعاً كان اسمها في البداية بوسي مثل كل القطط المصرية من الطبقة الوسطى ، لكن صاحبها حمادة شرع فجأة يناديها باسم موني ، ويوماً بعد يوم صارت تستجيب لهذا الأسم الجديد . وبسؤال عن السبب في هذا التغيير قال بتلك اللثغة التي لازمته إلى ما بعد سن الخامسة !

– هي قالت لي ان اثمها كده !

والحكاية كلها بالطبع أنه قد اختار لها اسماً خالياً من حرف السين لكي يسهل عليه نطقه .

مدت موني رأسها تتشمم الهواء ، إذ سبقتني كالمعتاد إلى التقاط تلك الرائحة الشهية التي بدأت تعطر جو الحديقة ، رائحة تقلية تصنع في المطبخ . والتقلية تصحبها الملوخية ، والملوخية قلما تتواجد بغير فراخ أو أرانب في أضعف الايمان ، سلسلة من الاستنتاجات لا أزعم انها قد مرت بهذا الوضوح في تلك الدماغ السوداء ، وان كنت لا أستبعد ذلك من قطة عمرها عشرون عاماً بعمرنا نحن البشر ، أي أكثر من مائة عام بما يناسب عمر القطط .

الرائحة وفدت من باب الشرفة المفتوح ، بعد أن مرت بالصالة آتية من الطرقة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ ، حيث أتخيل أمينة واقفة في فستانها الرمادي وسط سحابة كثيفة بيضاء من بخار الحلل . وإزاء تلك الرائحة نسيت موني كل شيء عن الشمس وأسرعت متواثبة نحو الشرفة في نشاط مفاجئ .

وصوت خرفشة تحت السور النباتي عرفت مصدره من قبل أن أنظر إليه ، وقبل أن أواجه العينين السوداوين الجاحظتين للكائن الذي وقف يرمقني في تساؤل ، الضفدع الكبير – أو الضفدعة الذي يأتي بين حين وآخر والذي سمحت لنفسي – على عكس الحال مع الفراشة البيضاء – بأن افترض أنه ضفدع بذاته لا يتغير .

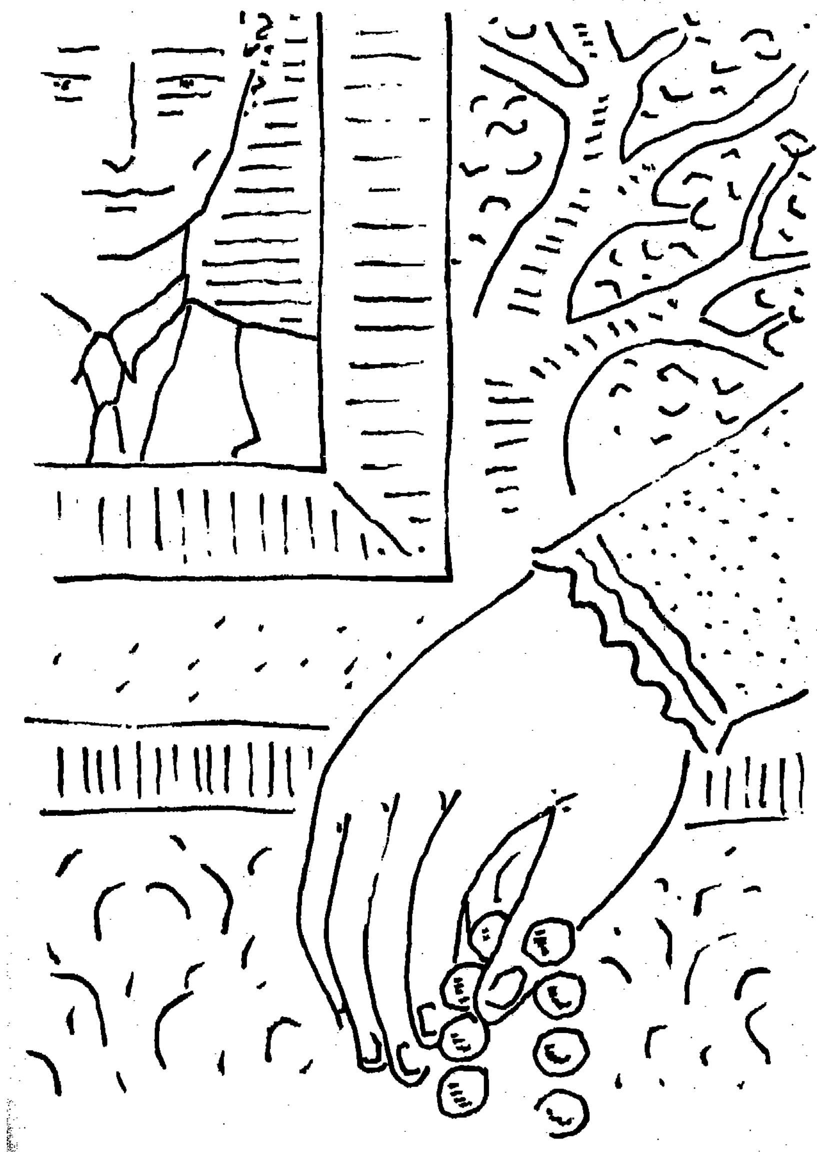
– آووو !

كلمة واحدة موجزة يقولها لي كلما مر من هنا ، ثم يقفز قفزة تدخل به من خلال السور إلى الشونة وراء السور النباتي . ضفدوع كما أسميته إذا كان ذكراً ، فإذا كان أنثى فعليه أن يضيف لنفسه تاء التأنيث .

واندفع من حوض البانسيه جسم صغير أبيض ، للفراشة التي شبعت من الرحيق فطارت . ولطالما تساءلت هل تشبع الفراشة بهذه السرعة لأن بطنها صغير مثلها ، أم أنها – لخبث في طبعها – ترفض أن تنال وجبتها الكاملة من زهرة واحدة ، مفضلة أن تملأ بطنها من عشرين زهرة في عشرين حديقة ؟ ؟

وتذكرت كوب الشاي فمددت نحوه يداً تعودت على منظر عروقها النافرة ، محاولاً أن أتجاهل ما بدأ يشوبها من رعدة خفيفة في العهد الأخير . ولذلك رحبت بانكسار اذن الكوب الخزف البني ، لكي أقبض عليه بجماع يدي بدلاً من أن أمسكه باصبعين أو ثلاث فترداد

الرعدة وضوحاً . وكان الشاي لذيذاً حقاً بتلك النكهة الاضافية من نور الضحى ، حيث حسوت منه على مهل على الكرسي القش الأصفر العتيق .



الفصـل الثـاني

« هل يحتاج جمعة إلى حجاب ؟ – طائر مهاجر في مطابخ لندن – ساقية صدئة اسمها شحاتة – فيدو أو صوت سيده ، الكلب النجس المنبوذ » .

أمينة وحمادة وفيدو

قروش الضوء الراقصة تحت تمارا ما زالت كافية لحصولي على حاجتي من الدفء ، هنا حيث أجلس على الكرسي القش العتيق الأصفر . وأمامي تحت زهيرة كرسي آخر أخضر من نفس الطقم العتيق ، هو المفضل عند أمينة حين تنزل إلى الحديقة ، لأن لونه الأخضر كما تقول من لون الجنة .

في الشرفة برزت أمينة من داخل البيت في فستانها الرمادي ، تتدلى من يدها سبحة طويلة ذات حبات صغيرة سوداء . ما كانت لتقنع بسبحة أقل من مائة حبة ، أما السبحة ذات الثلاثين حبة فهي تتركها للهواة الذين لم يكتمل إيمانهم .

وكانت قبل ذلك لا تخلع الثوب الأسود حتى أقنعتها على مر الأيام بأن اللون الرمادي لا يقل بلاغة في التعبير عن الحزن و بأسلوب أوقر . وعلى رأسها طرحة الحجاب البيضاء لتخفي شعرها عن عيون الرجال ، مع أن شعرها يوشك أن يصبح أكثر من الطرحة بياضاً !

فقلت لها ذات يوم متهكماً :

– هي الجنينة فيها رجالة يا أمينة؟

فقالت بغيظ :

– هو جمعة موش راجل ؟

فخطر لي أن أقول لها :

– إذا كنتي انتي ست يبقى هو راجل !

لكنني لم أفعل طبعاً ، فليس كل ما يخطر للمرء يقوله لاسيما إذا كان صحيحاً .

متثاقلة سارت أمينة في الشرفة ، متمايلة لكي توزع على ساقيها أوجاع الروماتزم بالعدل . نزلت السلالم الأربع المؤدية إلى الحديقة وعبرت الممشى الرملي الصغير ، قتلت بالضرورة ما قتلت من طابور النمل الشغال هناك طول الوقت .

آخذ في الامتلاء جسم أمينة حتى لتوشك أن تصبح سيدة بدينة ، غزال زمان الرشيق الأسمر ، الذي في أعماق عيونه العسلية ترقص لمسة لذيذة من خضرة متهربة . أمونة الحلوة ، أمونتي ، وكم من الأسماء دللتها بها أيام زواجنا الأولى .

على الكرسي القش الأخضر أراحت جسمها قائلة :.

– الروماتيزم النهار ده عامل عمايله معايا .

نبرة خشنة طرأت على صوتها بعد أن أكملت الستين فلم تحاول أن تداريها . سرحت حيناً ثم فتحت موضوعها المفضل قائلة :

– حمادة اتأخر المرة دي في الجوابات .

– هي الناس في أمريكا فاضية تكتب جوابات ؟

– يكتب ولو سطرين يطمني عليه . انت قلت لي البلد اللي هو فيها دي اسمها أيه ؟

لا يمكنها أبداً أن تحفظ كلمة ماساشوستس .

– جتهم البلا ف أساميهم ! ده اسم حد يسميه لبلد ؟ وهو راخر يستاهل اللي يجرى له ! قاعد معانا واكل شارب معزز مكرم ، لازم يشحطط

نفسه ف آخر الدنيا ؟ ويا ريته بفايدة ، إلا لغاية النهاردة على فيض الكريم .

– اصبري عليه شوية ، بكرة يشم نفسه .

كان طبيعياً أن يتضاعف تعلقها بحمادة بعد أن حدث ما حدث ، وفي سبيل تثبيطه عن الهجرة استخدمت كافة الأساليب بما في ذلك المرض . لكنها كانت تنفخ في قربة مقطوعة ، إذ قرر الولد أن يهج وانتهى الأمر ، وقبل أن يقفز عبر الأطلنطي غرباً كتب إلينا من لندن يقول إنه يكسب عيشه مؤقتاً من غسل الصحون في المطاعم ، فكادت أمينة تقع من طولها .

– يا ندامتي ! حمادة ابني يغسل الصحون ؟ ده عمره ما مد ايده في الحوض . ده كان يعمل القهوة وأنا اللي اغسل له الكنكة !

فطمأنتها إلى أنهم في تلك البلاد يستخدمون الآلة في غسل الصحون بدلاً من اليد البشرية ، فلا مناسبة لأن تتخيل ولدها وقد أمسك بليفة بريطانية وراح يدعك بها صحناً نجساً بما يحمل من آثار شحم الخنزير . فأراحها هذا الكلام نوعاً ، وان ظلت فكرة غسل الصحون في ذاتها إهانة عظيمة لا تدري كيف قبلها على نفسه شاب محترم هو ولدها ويحمل بكالوريس التجارة بدرجة جيد .

وصوت مبحوح نادانا من وراء السور النباتي ، صوت جمعة خفير الشونة الذي يتولى ري حديقتنا وكنسها .

– صباح الخير يا بيه ، صباح الخير يا حاجة . عندي النهاردة جرجير حلو قوي !

– هات لنا حزمتين .

– حاضر يا حاجة .

– وفجل كمان .

– حاضر يا بيه .

– وشوف لنا كام بيضة عندك .

وكأنما سمعتنا الدجاجة المختصة فشرعت تردد نقيق الفرخة التي تريد أن تبيض . ومن آخر الشونة يترامى إلينا ذلك الأنين الأبدي الخافت ، بكاء شحاتة ابن جمعة ، أشبه شيء بصرير ساقية عتيقة صدئة .

نهضت أمينة واختفت وراء البيت ، وعند باب الحديقة الحديدي الواطي ظهر جمعة بعد حين ، تائهاً بجسمه المترهل في جلبابه الأبيض الفضفاض الذي يتسع لاثنين معه . وشارب أسود كثيف يتصدر وجهه الأسمر الكروي ، أفزعني أول الأمر حتى أدركت أنه شيء من النوع الذي يركبونه الممثلين في الأدوار الهزلية . وبجانبه يسير كلبه المضحك بظهره البني الغامق منجرد الشعر وبطنه الصفراء الغامقة ، ويسميه مع ذلك فيدو تيمناً بكلاب الناس الطيبين .

دفع جمعة الباب ودخل وأراد فيدو أن يتبعه فمنعه .

– ارجع يا فيدو ارجع ما تزعلش منا الحاجة !

لأن الكلب كان ممنوعاً من دخول حديقتنا بأمر أمينة ، لا لأنه قد أخطأ في حقنا بصورة ما وانما لمجرد أنه كلب ، تلك التهمة التي تجعل منه – مثل كافة كلاب الدنيا – كائناً نجساً يجب علينا أن ننبذه ونتحاشاه ونزجره كلما رأيناه .

فخطر لي مرة أن أسألها :

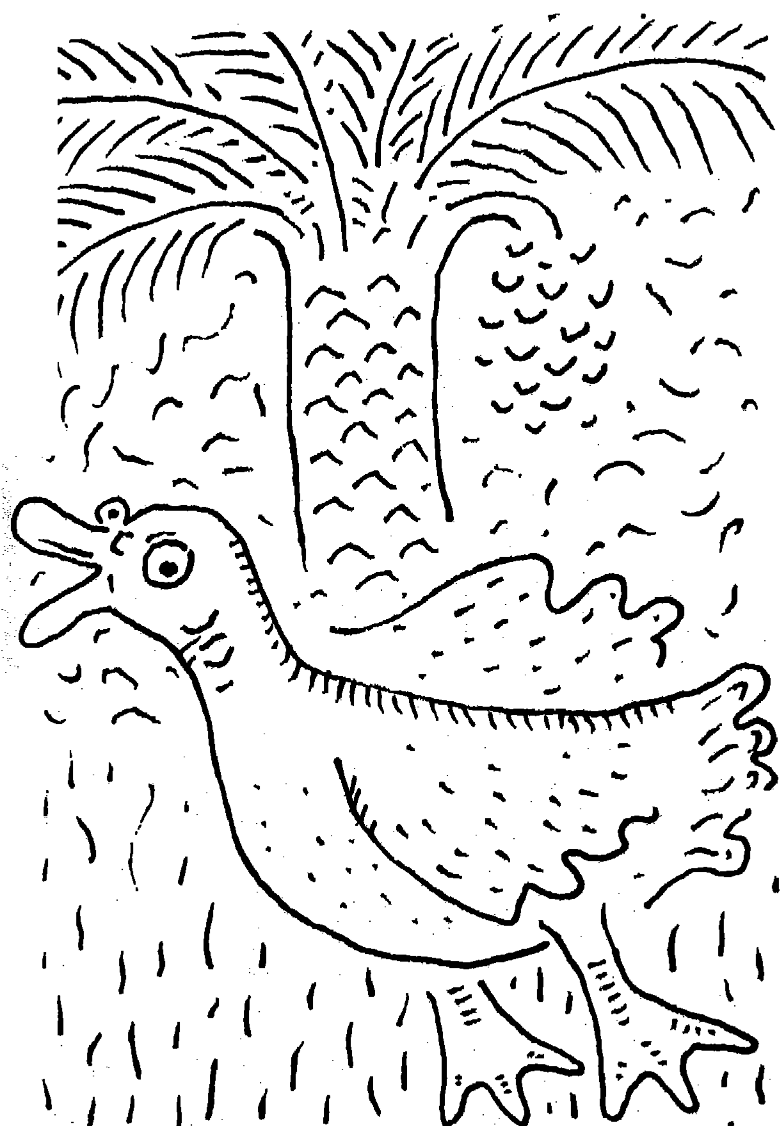
– وكان ربنا بيخلقه ليه ؟

فقالت بحزم :

– وكان بيخلق العقربة ليه ؟

فلم أجادلها ، وحرمنا من أن يكون لنا كلبنا الخاص الذي يحرسنا من المخدوعين من اللصوص . ونبح الكلب احتجاجاً على منعه من الدخول ، وكان في صوته بحة مثل صوت جمعة ، فهل كان غريباً مني أن أسميه صوت سيده ؟ لكنه ظل في الخارج بالرغم من الباب المفتوح ، على الرصيف ارتمى ورفع ساقه ليعضعض في بطنه الصفراء متصيداً ما يصادفه من حشرة القراد . مزيج عملي من النظافة والغذاء .

إني أحب جمعة لسبب غير واضح لي تماماً ، وفي الوقت نفسه أرثي له ، ويدهشني أنه يأخذ نفسه مأخذ الجد فيعمل لكي يتزوج ويخلف ويجلس بالليل ليشرب الجوزة ويشرع في إنجاب طفل جديد. وأشياء كثيرة تعلمت ان أحبها وأرثي لها ، حيث أجلس على الكرسي القش العتيق الأصفر .



الفصل الثالث

« الخضراء بدون أن تكون خضراء – مجمع للعصافير وأسرة جمعة – إسطوانة مشروخة تتأوه – لماذا تكلم جمعة عن البطة الجريحة بضمير المذكر ؟ » .

رينا والنخلة وذكر البط

حتى قروش تمارا الدافئة لا تلزمني في هذا الصباح الذي يوشك أن يكون صيفاً . فالشتاء لا يزال يتلكأ لسبب غير مفهوم ، وهي قطعاً أكلة خاصة يجهزها لنا على مهله في مطبخه غير المبارك . فجلست في الشرفة على الكرسي القش الأحمر ، ثالث كراسي الطقم العتيق ، وذلك بعد أن جمعت ما كان يعلوه كالمعتاد من زهور الياسمين .

بارك الله فيك يا حمادة أينما كنت ، إذ جذب إلى الداخل بعض فروع من ياسمينة ، وبشيء من الخيوط والمسامير صنع لنا في الشرفة مشروع خميلة ياسمين صغيرة مبهجة . وياسمينة الأم تواصل رحلتها الأبدية الدؤوب نحو سطح البيت ، عشرات من الزهور البيضاء تلمع فوق خضرتها وترمقني بنظرات أميل إلى الظن بأنها متعاطفة .

وهنا في الشرفة أرى صديقتي الرابعة شبه كاملة ، وراء السور النباتي الذي لا يحجب شيئاً منها سوى أسفل جذعها الطويل . فهي صديقتي بدون أن تكون شجرتي ، ومتى كانت الملكية من شروط الصداقة ؟ هي نابتة في الشونة التي نسميها هازلين بأرض عم جمعة ، إذ يتولى حراسة ما فيها من أكياس الأسمنت وأسياخ الحديد المملوكة للمقاول صاحب الأرض .

طويلة رشيقة مهندمة على الدوام ، خضراء بدون أن تكون خضراء .

لمسة من البني المحروق تمازج خضرتها الهادئة وتجعلها غير ذات لون مؤكد . فهي أحياناً برتقالية على خضراء ، وهي أحياناً صفراء ، وهي أحياناً طوبية متوهجة توشك أن تكون حمراء . وفي حبها للتفرد رفضت أن يكون لها أوراق مثل سائر الشجر ، معتمدة في تنفسها على تلك الغصينات الصغيرة التي تتدلى من أغصانها مثلما تتدلى الشراشيب من كم فستان أخضر على بنت رشيقة مثلها .

لكن أمينة لا تحبها ولا تنكر ذلك .

– موش فاهمة ايه عاجبك فيها ، لا بتطرح ولا بتزهر ولا منها فايدة ولا عايدة .

فهي في علاقتها بالنبات تؤمن بمذهب المنفعة ، ولذلك كان تفضيلها للنخلة القائمة هناك في آخر الشونة ، الكالحة المائلة بزاوية حادة تجعل حياتها مقاومة مستمرة للسقوط . لكنها تثمر وتطعم جمعة وأسرته ، من السباطة اليتيمة الحمراء التي تطرحها كل صيف . وهذا إلى جانب علاقاتها التاريخية العديدة بالأنبياء والقديسين .

فقلت لأمينة وأنا أشير إلى صديقتي :

– عارفة دي بقى اسمها إيه ؟

قالت متصابرة :

– إيه يا سيدي ؟

– اسمها رينا .

فقالت ساخرة :

– اشمعنى ؟

– شجرة كزورينا ، ح اقول لها يا ايه إلا يا رينا ؟ ؟

فضحكت أمينة ضحكة صغيرة ، وكانت تضحك كثيراً قبل

أن يحدث ما حدث ، وقالت :

– ربنا يكملك بعقلك !

وفي آخر الشونة بالقرب من النخلة يقوم ذلك البناء الحجري الأصفر ، وعشرات من الشقوق في جدرانه حولتها العصافير إلى عشرات من الأعشاش . هناك يخزنون أكياس الأسمنت وأسياخ الحديد وأسرة عم جمعة ، ومن هناك ينبعث ذلك الأنين الصدئ الذي لا ينقطع نهاراً أو ليلاً .

وعن أم شحاتة لا أعرف شيئاً الا صوتها البدائي الجلف الذي يلعلع في الشونة كلما تشاحنت مع زوجها جمعة . ومن حسن حظي أنني لا أفهم شيئاً مما تقول ، إذ تنهال الكلمات من فمها أشبه بأكداس الزلط حين تنسكب على الأرض دفعة واحدة من قلاب على ظهر لوري .

وقد كان في البداية يبكي مثلما يبكي سائر الأطفال ، صراخات متشنجة تتفجر حيناً ثم تهدأ عندما يزول سببها . ثم تبين أن هذا السبب لا يزول عند شحاته أبداً ، ومع الجهد والتعب تحول البكاء إلى أنين خافت مستمر مثل خرفشة اسطوانة مشروخة علقت إلى الأبد على كلمة آه . ربما كان الجوع على صدر تلك الأنثى العجفاء ، وربما كان المغص أو الإسهال أو قرص الناموس . وهو صوت ألفته ولم يعد يزعجني ، ولربما افتقدته وأزعجني سكوته إذا سكت .

– ما توديه لدكتور يا جمعة ؟

هكذا اقترحت عليه يوماً فقال :

– هو دكتور واحد يا بيه ؟ دنا لفيت به مستشفيات البلد كلتها . صلي ع النبي يا بيه .

وأشار نحو البيت الحجري المشقق وقال :

- كله م الولية دي ! بطنها بعيد عنك زفرة ، عمر ما نزل منها عيل سليم !

وعلمت أمينة من بائعة اللبن أنه قد مات لجمعة حتى اليوم طفلان ، ولذلك سمي هذا الأخير شحاتة عسى أن يخزي عنه عيون الحاسدين فيعيش .

- يا ست ! يا مودام ! يا حاجة !

صوت جمعة عند باب الحديقة الذي لا أراه من هنا ، وأجابه صوت أمينة من عند باب المطبخ .

- أدخل يا جمعة ، عاوز حاجة ؟

ولم أسمع رده عليها إذ قرر كلبه أن ينبح معه في نفس اللحظة . قالت أمينة :

- هاته أشوفه .

وقال جمعة :

- امشي يا فيدو ، امشي !

وصوت جدل بينهما عند باب المطبخ لم أميز منه شيئاً ، صوت جمعة المبحوح يحاول أن يرتفع . فيغلب عليه صوت أمينة ويكبسه . ثم سكتا ومرت دقيقة قبل أن يظهر أمامي في الممشى الرملي ذلك الكائن الغريب .

هي بطة عادية سوداء مثل كل البط ما في ذلك شك ، ومع ذلك ساورني للفور إحساس قوي بأن فيها شيئاً غير طبيعي . واحتجت إلى لحظات قبل أن اكتشف طبيعة ذلك الشيء ، متمثلة في ذلك السرسوب الطويل من الدم الأحمر القاني ، الذي يقطر من عنق البطة ويرسم تحتها على الرمل الأصفر خطاً طويلاً متعرجاً أحمر . بطة عندها نزيف ، تفسير

غير معقول . وهي تسير خطوتين وتسقط من فرط ضعفها ، فتنهض ثانياً متحاملة على نفسها ، غير مدركة أنها تخطو آخر خطواتها في الحياة . ورأت على الأرض شيئاً أعجبها فالتقطته بمنقارها ورفعته إلى أعلى لتبتلعه غارقاً في دمائها .

وظهر جمعة مقبلاً في الممشى فما كاد يرى البطة حتى صاح فرحاً :

– لقيته يا ست !

فعجبت لماذا يتكلم عن البطة بضمير المذكر حتى قال :

– ده دكر بط كت الست موصياني عليه !

وانقض عليه فالتقطه ممسكاً إياه من ساقيه ورأسه يتدلى نحو الأرض ، والسرسوب الأحمر قد تحول إلى سيل غزير من الدماء .

قلت له مستفسراً :

– هي مدبوحة ؟

فقال مصححاً :

– أيوه يا بيه ، مدبوح .

– أنت اللي دابحه ؟

– أمال يا بيه .

– طب مش تدبحه زي الناس ؟ ده لف الجنينة كلها على رجليه !

فقال متباهياً :

– أحسن يا بيه ، عشان دمه يتصفى كويس !

وابتعد بالقتيل وهو يقول :

– ألف هنا وشفا يا بيه !

فتمنيت من قلبي أن أخلع الحذاء وأقصد إليه فأضربه ، لكنها

بالطبع ظلت مجرد أمنية . فما ذنب جمعة فيما فعل ، وهل أتى شيئاً غير ما رأى قومه يفعلون ؟

أما عني أنا فلا أظن أنني سأضع في فمي قطعة واحدة من هذا الذكر التعس ، اللهم الا إذا اعترتني حالة مؤسفة من ضعف الذاكرة ، وما أكثر ما تعتريني تلك الحالات في العهد الأخير .

ودخلت أمينة إلى الشرفة وهي تجفف يدها بفوطة وتقول في انتصار :

– دكر بط يسوي اتنين جنيه ، خدته منه بجنيه بس !

فتفكرت في الأمر لحظة ثم قلت :

– أحسن ، عشان دمه يتصفى كويس !

فقالت أمينة غير فاهمة :

– يعني إيه ؟

فقلت في ايجاز حاسم :

– نكتة غير موفقة .



الفصل الرابع

« هل يتنافى الحزن مع الزهور ؟ – نوع خاص من الحب – فضيحة بين البساتين – لست أحسن من الفراشة البيضاء – وفرح الولد المفقود » .

فضيحة في عالم الحدائق

- ما تزرع الجنينة دي يا بيه بدل ما هي قرعة كدة ؟

هكذا قال لي جمعة يوماً وهو حديث عهد بالعمل في حديقتنا ، فقلت له متهرباً :

- ما هي مزروعة آهه .

- ده سجر يا بيه . أنا قصدي نزرعها ورد وزهورات وحاجات فرايحي كده ، لجل ما تضحك كده وتبقى حلوة .

لم يخطر له أن هذا بالذات هو السر وراء تلك الحديقة العابسة ، أن أمينة لا تريد لها أن تضحك أو تكون حلوة ، وكيف يجوز لها أن تفعل بعد أن حدث ما حدث ؟

قلت لجمعة مداعباً :

- ما تزرع الزهورات دي عندك أنت ؟

- احنا بتوع زهورات يا بيه ؟ كفاية علينا حبة الفجل والجرجير . أجيب الفاس وآجي بكرة ؟

- لا يا جمعة ، قدام شوية .

وغامرت بعرض الفكرة على أمينة في احدى لحظاتها الصافية ، مؤكداً لها أن هذا الإصرار على الحزن وعلى تحريم ما أحل الله من

مباهج الحياة الصغيرة ما هو الا رفض خفي لإرادة الله واعتراض صامت على مشيئته .

- وعلى كل حال اعرضي الحكاية على دار الأفتا .

الشيخة مفيدة صاحبة الدرس الديني الأسبوعي الذي تحضره أمينة منذ سنوات ، بارك الله فيها من شيخة متفتحة العقل واسعة الأفق ، وافقتني تماماً على رأيي في حزن أمينة الأبدي ، وإن كانت قد خالفتني قبل ذلك في مسألة الكلب صوت سيده فكتبت عليه النجاسة الأبدية .

ابتسامة جمعة وصلت إلى أذنيه حين صرحت له بأن يزرع الحديقة ، مشترطاً عليه أن يفعل ذلك في أضيق حدود ممكنة . وكان من الممتع أن أرقب جمعة وهو يعمل في الحديقة ، الأرض يعزقها بالفأس ليكشف للشمس أحشاءها السوداء الظامئة للضوء . أو بالشقرف يداعبها في رفق كأنه يخشى أن يجرحها ، ويده التي تغوص في التربة المبتلة السوداء كأنما تغوص في عجينة سقيت لبناً وعسلاً .

إنه يحب الأرض من قلب فلاح أصيل سخطه الزمن خفيراً لشكائر الأسمنت . أنا شخصياً قد أمشي على الأرض عمراً كاملاً دون أن أحبها بهذه الصورة ، وقد أبني عليها قصراً أو هرماً أو أحفر لنفسي فيها قبراً ، وشيء من ذلك لن يجعلني أحبها ذلك النوع من الحب .

وكانت بالطبع فضيحة بجلاجل في دنيا فلاحة البساتين ، تلك الحديقة التي زرعها جمعة بمقاييس أولئك الذين يستعملون كلمات مثل التيوليب والجلاديولس وغيرها من الزهور ذات الأصل الكريم . حوض من زهور البانسيه ذات المائة لون ، حيث يقف القرد الوقح بجانب الأرنب المذعور ، بجانب البنت الخارجة لتوها من عند الكوافير ، وغير ذلك من الأشكال الجديدة التي يكتشفها الإنسان كل يوم إذا

كان من هواة ذلك . وحوض آخر يحوي تشكيلة فاقعة الألوان من درجات الأحمر ، أشبه شيء بفساتين البنات الذاهبات إلى حديقة الحيوان صباح يوم العيد .

غير أن هذا لم يكن ليزعجني ، وكيف يزعج رجلاً يعتبر نفسه من غلاة المؤمنين بالاشتراكية النباتية ؟ إن كل الزهور جميلة في نظري طالما أدخلت البهجة على نفسي ، أما الأصل الكريم فلنتركه لمن يحتاج إليه . وكيف لا أحب هذا القرد وهذا الأرنب ، والرجل الصيني الأصفر ذا الشارب الأسود الطويل الذي اكتشفت وجوده منذ أيام ؟ إن الفراشة الصغيرة البيضاء تحب هذه الزهور وتتهافت عليها ، فمن أنا حتى أدعي أنني أفهم في الزهور أكثر من الفراشة الصغيرة البيضاء ؟

قال لي جمعة وهو يشير مزهواً إلى ما صنعت يداه :

– شايف يا بيه ؟ بالذمة موش بقت شربات ؟

– بأنفاسك يا جمعة !

– ازرع لك حوض بقى داير دايز ؟

– اسأل الست .

وبعد أيام رأيته عاكفاً على عزق الأرض حول محيط النجيلة الخضراء . وقالت أمينة متحاشية أن تنظر إليّ :

– أقول لك حاجة ولا تضحككش ؟

– واضحك ليه ؟

– أنت موش عارف نفسك ؟

– موش ح اضحك .

فقالت في خجل :

– محمد جاني في الحلم وقال لي انه فرحان بزرع الجنينة .

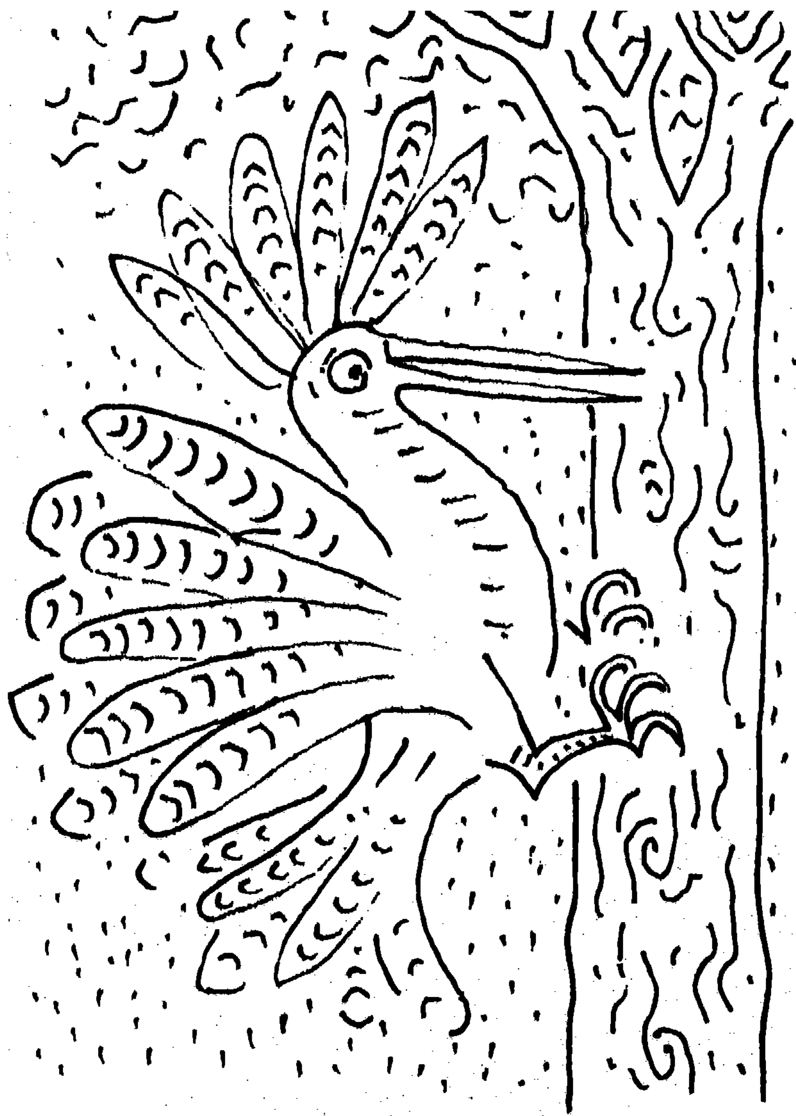
فمددت يدي لكي أربت في حنان على ركبتها العجوز ، هنا حيث جلست أمامي على الكرسي القش الأخضر الذي بلون الجنة .

وقلت لها مخلصاً :

– ربنا يفرحكو دايماً .

وضغطت برفق على ركبتها فقالت متوجعة بشبهة دلع قديم :

– أي ، الروماتزم !



الفصل الخامس

« بردان وراء الزجاج المغلق – ربة السحر والأوبيك – لماذا يتخاصم هدهد وعصفور ؟ – هل هو عصفور فاسق ؟ فضيحة الطائر المبروك – ربة السحر تنتصر» .

فضيحة الهدهد

إذا جاء الشتاء فليس الربيع ببعيد ، كلمة فارغة قالها الشاعر الإنجليزي البردان ليصبر نفسه على بلواه ، إذ هو أجدر الناس بأن يعرف أنه إذا جاء الشتاء فقد جاء ، وأن دونه والربيع شهوراً طويلة من الهم البارد والعذاب المثلج .

ولكم فرحت عندما رأيته يؤجل وصوله بتلك الصورة ، بل وتخيلت في لحظة جنون انه ربما يكون قد ألغى حضوره أصلاً ، متأثراً بدعوة حارة من قلبي الطاهر ! لكن الشتاء هو الشتاء ، كلمة باردة يجب أن نسمعها من الزمن كلما حان وقتها المحتوم .

إذ فتحت باب الشرفة ذات صباح فكأنني فتحته عن ثلاجة كونية كبرى تهدد بالتجمد كل ما تلامسه . فأقفلته بسرعة وحييت الصديقات بالإشارة من وراء الزجاج ، ما من واحدة منهن ردت عليّ السلام . عابسات كلهن كالحات يحملن هموم الدنيا بأسرها . وبنظرة إلى السماء عرفت السبب ، السماء الرمادية الكئيبة المنذرة بيوم شتوي مشئوم . ومع ذلك فالهواء ساكن تماماً ، ما من ورقة واحدة تهتز في غصن واحد من آلاف الأغصان الجامدة في الأشجار حولي . الهدوء المثلج المريب ، كأنها لحظات العد التنازلي قبل انفجار المصيبة التي أعدتها لنا السماء .

في بلاهة جلست موني أمام المدفأة ، مندهشة لماذا لا تشعر بالدفء

كما هو مفروض ، ومتخيلة أنها لو أطالت البحلقة في المدفأة فقد تشعلها بقوة سحرها الخفي ، هي الإلهة باسيت روح إيزيس ربة السحر . فهي لا تعرف أن الجاز قد أصبح وقوداً عزيزاً ، وأن العقلاء من الناس قد كفوا عن إشعال المدافيء صباحاً . وتلك بالطبع كلمة لا تعني عندها شيئاً على الإطلاق ، كلمة أوبك .

الفائزة الحقيقية اليوم هي أمينة ، بوقفتها الممتعة أمام شعلات البوتاجاز الساخنة وما فوقها من حلل تشكشك وتملأ الجو بخاراً دافئاً شهياً . وأنه ليكفيني أن أستمع من بعيد إلى ذلك الصوت المطرب لكي امتلئ دفئاً ، صوت الكبشة وهي تتخبط على جوانب حلة ساخنة .

فوقفت وراء الزجاج المغلق أفرك كفي وأنفخ فيهما وألعن أسلاف الشتاء . وشيء هبط فجأة أمامي على سور الشرفة ، شيء حي تغطيه ألوان مزركشة بدرجات من البني والبيج الغامق . على رأسه تاج فخور أحمر ، وأمامه على سبيل المنقار سيف طويل مدبب . هدهد جميل علموني منذ صباي أن أحبه وأتفاءل به وأتمنى شيئاً من البركات التي تتناثر من جناحيه حين يطير .

ففرحت به إذ اختص شرفتي بشرف الهبوط فيها ، وعتبت عليه حين بسط جناحيه بسرعة وطار . عبر السور النباتي طار واجتاز الشونة كلها ، حتى وصل إلى البيت الحجري المشقق فحط هناك على سطحه فوق جمعة وأسرته والعصافير .

مدى لحظة شغلت عنه بالتطلع إلى السماء التي بدأت تكتسب ذلك اللون الأسود القبيح ، ثم ردتني إليه تلك الضجة التي انبعثت فجأة من ناحيته ، حيث دوامة كبيرة من العصافير تحلق فوق البناء الحجري في دوائر محمومة وهي تصرخ كلها في وقت واحد . وفي مركز تلك

الدوامة رأيت جسماً مزركشاً هو الهدهد ، وكان قد انتقل من سطح البيت الحجري إلى جداره المشقق حيث تعلق بمخالبه بأحد شقوق العصافير وهو يضرب بجناحيه ضربات سريعة لكي يتفادى السقوط ، ومنقاره الطويل المدبب قد غاص في أعماق الشق وراح ينبشه بهدف واضح لا لبس فيه هو أن يدمر ذلك العش تدميراً .

لماذا اختار هذا العش بالذات لا أدري ، ولماذا تقع العداوة بين هدهد وعصفور لا أدري ، فليس بيدي سوى أن أقف عاجزاً أتفرج على ذلك المنظر المأساوي . أشياء كثيرة يخرجها الهدهد من العش وينثرها حوله في الهواء ، ميزت فيها ريشاً للطيور وأوراقاً للشجر وأغصاناً صغيرة . وفي دماغي المحمومة تخيلت داخل العش مجموعة من البيض لم تفقس بعد ، أو أسرة من صغار العصافير ممدودة الأعناق منفرجة المناقير تنتظر ما سوف تدسه فيها أمها حين تعود .

كان واضحاً من حماسة الهدهد أنه يجد في عمله متعة كبيرة ، غامضة الا على جنس الهداهد . أما أنا فسأظل إلى الأبد جاهلاً إن كان هذا الهدهد قد قرر — في نوبة بشرية طارئة — أن يدمر ذلك العش لمجرد متعة التدمير ، أم أنه يتناول وجبة الأفطار العادية مثلما يفعل كل يوم وأنا لا أدري .

وأخيراً تعب الهدهد أو شبع أو زهق أو لا أدري ماذا ، فضرب بجناحيه ضربة رفعته فوق سطح البناء الحجري . هناك وقف يتلفت حوله في خيلاء ، تاجه يرقص فوق رأسه في زهو الظافرين ، وسيفه ممدود أمامه يقول هل من مبارز ؟ والعصافير ما زالت في دوامتها المجنونة حوله ، خائفة من أن يكون الوحش في فترة من الراحة قبل أن ينقض على عش جديد .

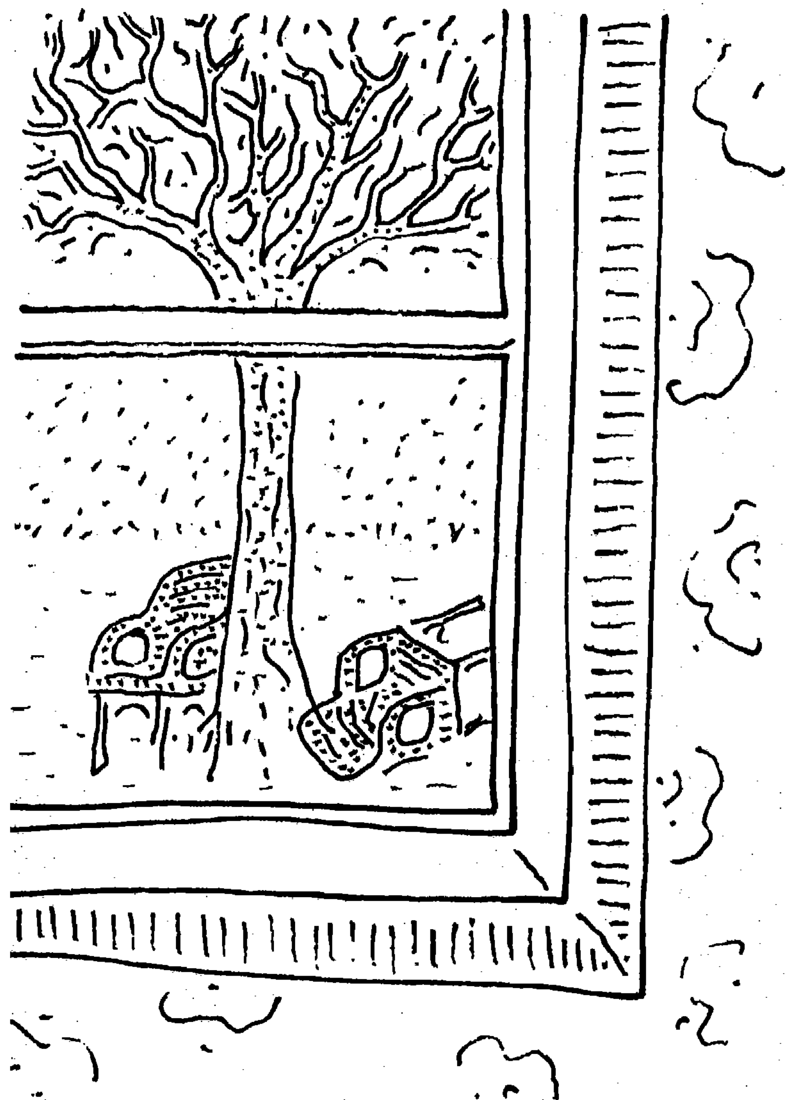
وفجأة قصف الرعد بشدة ، مرة ثم مرتين ثم ثلاث مرات ، وسيف لمع في السماء واخترق السحب الكثيفة السوداء ، فانفتحت السماء عن الدش الكوني المرتقب الذي راح يغرق كل شيء . رينا وزهيرة وتمارا والكرسي القش الأصفر العتيق ، والآخر الأخضر الذي بلون الجنة . والقرود الضاحكة والأطفال المذعورة وفساتين البنات الحمراء والبمبي ، والحمد لله أن الفراشة البيضاء كانت أعقل من أن تخرج في مثل هذا الجو .

وعن السطح الحجري طار الهدهد مذعوراً تتناثر البركات من جناحيه مبتلة نوعاً . والعصافير عادت مسرعة إلى أعشاشها ، أسفت لأنه ليس لها أبواب لتحتمي وراءها من شرور الحياة .

فياليت السماء بكرت قليلاً بهذا المطر ، إذن لربما أمكنها أن تنقذ ذلك العش التعس من التدمير . ومع ذلك من يدري ، أليس من الممكن أن يكون صاحب ذلك العش عصفوراً فاسقاً منحلاً يستحق ما حل به من العقاب ليكون عبرة لمن يعتبر من بني عصفور ؟

وأدركت بعد فوات الأوان كيف فاتني أن أنادي أمينة لتشهد فضيحة ذلك الهدهد السفاح ، لعلمي بأنها سوف تكذبني عندما تسمع القصة مني . ستقول أن جريمة كهذه لا يمكن أن يرتكبها ذلك الطائر المبروك صديق سيدنا سليمان ، وأنني أنا الذي بدأت أتوهم أشياء لا حقيقة لها من طول معاشرتي للشجر والحيوان على الكرسي الأصفر العتيق .

وسيل من المطر بدأ يضرب الزجاج بشدة حتى أوشك أن يحجب الرؤية تماماً ، فكرهت المنظر كله وابتعدت نحو المدفأة حيث ما زالت موني صابرة تنتظر . نعم إن العقلاء لا يوقدون المدافيء صباحاً ، لكن من هو ذلك اللوح الذي يريد أن يحشرني بالعافية في زمرة العقلاء ؟



الفصـــل السـادس

على البساط النبيتي العتيق – الثلج أقفل الأبواب – وجاء من أقصى سيناء – الولد والفحمة سوداء – حب وسط العاصفة » .

بجانب المدفأة

العاصفة تزمجر في الخارج في الظلام المثلج ، غاضبة معربدة وسط الكائنات الخضراء الوديعة الصامدة . عواء للريح لا ينقطع ، وصرير أليم للأجزاء الطرية من جذوع الشجر ، وفي ليلة كهذه قد تنكسر أية شجرة وتهوي دون أن يشعر بها أحد ، حتى الطويلة الرشيقة التي أشك في أنها ما زالت مهندمة .والدش الكوني ما برح مفتوحاً منذ ساعات ، كأن أحداً قد فتحه ليستحم ونسي أن يقفله .

فجلست في الصالة على يمين المدفأة المشتعلة ، على الفوتي اللبني الذي كان ذات يوم أزرق ، وقدماي على ما تبقى من وبر في البساط النبيتي العتيق . وأمينة على مقعد مماثل عن يسار المدفأة . تتلاقى أصابعنا الباحثة عن الدفء أمام فتحاتها حيث العهد الساخن الذي فيه شفاء لأصابعنا العجوز المتجمدة . له حق أن يكذبنا من نقول له أننا كنا في ذات يوم نستنبط الدفء بالجهود الذاتية من جوف هذين الجسدين .

وفجأة قفز إلى حجري جسم أسود على أبيض ، موني التي كانت نائمة تحلم عند قدمي . حجري أحسن لأنه أقرب إلى فتحات المدفأة الساخنة ، والروب الصوف الرمادي يشع دفئاً إضافياً تحتها ، فتكورت هناك وبدأت تقرأ . — كررررر !

قراءات غامضة تؤكد أمينة أنها ذات طابع ديني ، وهذا ليس

شيئاً مستغرباً من آلهة سابقة . فوضعت يدي على ظهرها أمسح بها على قطيفته السوداء ، ومددت أصبعاً أتحسس به ذبذبات القراءة أسفل عنقها الأبيض الذي تمدد في استمتاع .

– كررررر !

ارتفع صوتها بالقراءة فسمعته أمينة وتصعبت .

– يا كبدي يا بني ! شوف إحنا قاعدين دفيانين إزاي ، وهو يا ضنايا موش عارف يفتح الباب من كتر الثلج !

معلومة كتبها لها حمادة في رسالته الأخيرة ، وأشعر أن شيئاً هاماً ينقصها لكي تدخل في الدماغ . واسترسلت أمينة وهي تلتقط بكرة من صوف التريكو الأزرق :

– آديني ح اعمل له بلوفر حلو يدفيه !

– هي قلة بلوفرات في أمريكا ؟

– شغل ايد الأم يدفيه أكتر !

– حسرة ع اليتامى اللي زينا !

وفجأة سطعت الفكرة في دماغي فقلت لها :

– عمرك شفتي باب يفتح لبرة ؟

فقالت غير فاهمة !

– يعني أيه ؟

– يعني أما بتيجي تفتحي باب ، بتشديه لجوة ولاّ تزقيه لبرة ؟

فتفكرت لحظة ثم قالت :

– باشده لجوة !

فقلت لها في انتصار وأنا أطرق باصبعين :

– يبقى لازم الثلج في أمريكا دخل جوة البيوت !

فيبدو أنها كانت قد فكرت في الأمر بمفردها ولحسابها الخاص ، بدليل أنها قالت بسرعة شديدة .

– لازم أبوابهم كده !

– تنفتح لبرة ؟

– آه ، اللي يسمي بلده ماساكوفتش يعمل ابوابها تنفتح لبرة !

فأحببت منظر الغيظ الكاذب على وجهها القمحي الذي بدأت تغزوه التجاعيد ، ولمسة الخضرة القديمة ما زالت تتلاعب في عينيها وإن فقدت بريقها القديم . وما كان أحد ليلوم أمينة أو يطالبها بأن تظل هي أمينة القديمة بعد ذلك الذي حدث . فلو أنهم قالوا لها إنه قد استشهد لكان ذلك أرحم بها من تلك الكلمة الجافة المقتضبة الباردة : مفقود . قالوها وسكتوا ، عملوا ما عليهم وانصرفوا . ما من أحد شرح لها كيف تحول ولدها الأكبر من موجود إلى مفقود ، كيف تاه وليس بين أولاد الحلال من يرشد إليه . فكانت أسابيع مريرة في المستشفى ، وفي عالم غير عالمنا تعيش أمينة . فلعلها وجدت هناك ولدها التائه وخشيت أن تتركه فيتوه منها ثانياً . في عالم وحدها عاشت أمينة أسبوعاً وراء أسبوع ، عالم طالما تاه زواره إلى الأبد في دروبه الملتوية الباردة . وجاء من أقصى سيناء رجل يجري ، فك ما تبقى من أزرار الجاكتة الكاكي وارتمى قائلاً وهو يلهث :

– ماحنا نصبنا مفقودين يا بيه ، حد عارف حد من حد ؟ دي القنبلة من دول تنزل ع اللوري باللي فيه تخليهم فحمة سودة !

فحمة سوداء ولدي ، صورة أفزعتني لزمن طويل إلى درجة الاذلال ، والحمد لله أنها لم تصل إلى أذني أمينة في عالمها الآخر . لكنها كانت

أرحم عندي بكثير من صورة جثة ملقاة في العراء والوحوش تنهش لحمها في الوادي المقدس .

وعادت أمينة بعد زمن إلى عالمنا ، لكنها لم تكن – وما كانت يمكن أن تكون – نفس أمينة التي ذهبت . أشياء منها بقيت هناك ولم تعد ، وأشياء عادت بلون مختلف ، مثل شعرها الذي كان أسود فصار أبيض ، وشيئاً فشيئاً بدأت تتعلم الابتسام من جديد .

ومن فوق بكرة الصوف الزرقاء أتاني صوتها يقول :

– مش عارفة كان يجرى لي أيه لو حمادة راخر جرى له حاجة .

سؤال سمعته منها أكثر من مرة بعد أن هاجر حمادة ، تطرحه بأخشن نبرة من نبرات صوتها . ولحسن الحظ أنني لم أكن مضطراً إلى الإجابة ، لأن السؤال كان على الدوام موجها منها إلى نفسها . من أعماقها تتساءل ولا تنتظر أن تسمع الجواب ، وإذا كانت هي قد أجابت نفسها فلست أدري ماذا قالت .

من فوق خيوط التريكو تأملتها بحب ورثاء وهي لا تراني ، ثم ملت نحوها قائلاً : – أحبك يا أمونة .

فاختلست نحوي نظرة مستغربة ثم ابتسمت وقالت :

– حبتك العافية !

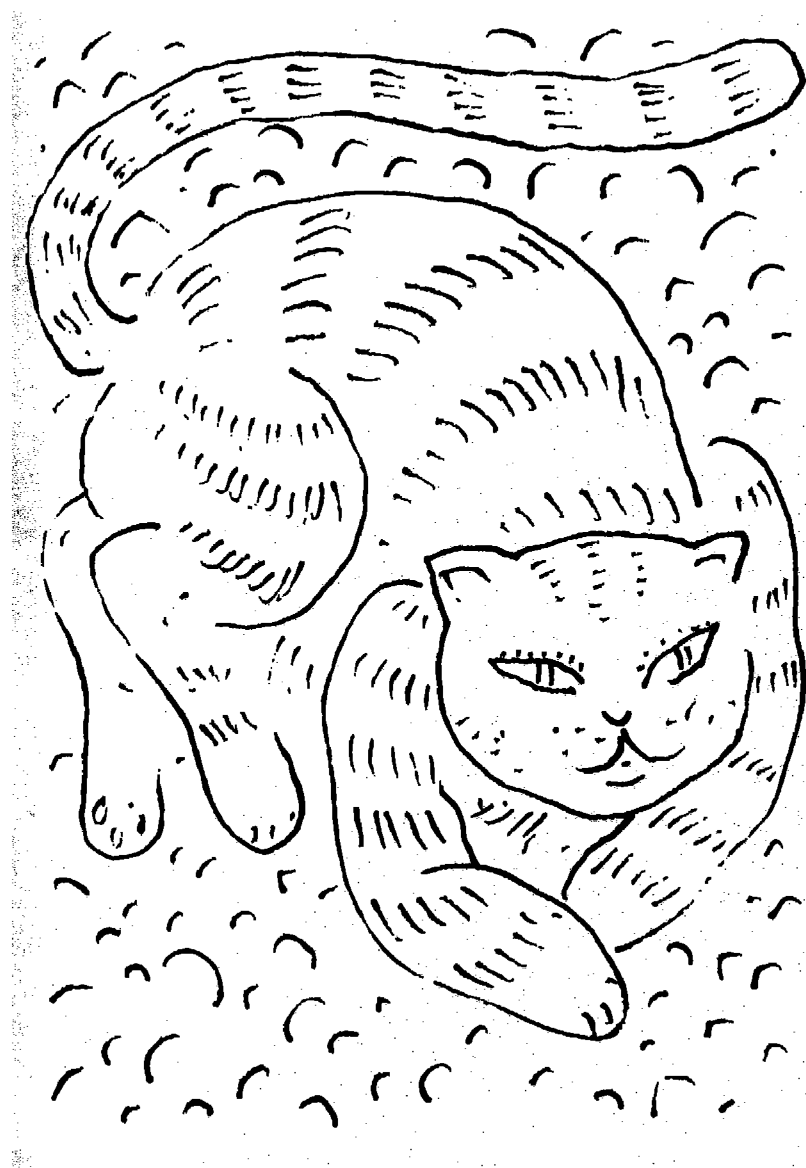
عواصف كثيرة هبت على حياتنا فقاومناها ، وحرائق كثيرة شبت فأطفأناها ، ثم حدث الذي حدث فجرف أمامه كل شيء .

كم يزعجني ذلك الصرير الأليم في جذوع الشجر أمام العاصفة المجنونة . وليمون كثير لا بد أنه قد سقط قبل الأوان من غصون زهيرة ، والأرض غمرتها الأوحال حول الكرسي الأصفر العتيق ، وفي الأوحال

وريقات بيضاء سقطت من تمارا وكانت معطرة .

– كررررر !

فكبشت الشعر في ظهر موني لا شعورياً ومسحت عليه في عكس اتجاهه الصحيح ، نزوة كثيراً ما تعتري الإنسان وهو يتحسس ظهور القطط . فزامت موني (حيث نامت) معلنة عن غضبها ، بل ونفخت في لحظة التباس بين الحلم والحقيقة في دماغها السوداء .



الفصل السابع

« الكرسي عاوز مسمار – وطلعت الشمس على إيزيس – موني تسهم في بناء الهرم – الالهة التي سقطت – إنقاذ في آخر لحظة » .

موني

سجن داخل البيت لمدة يومين ، من وراء الزجاج أرى تمارا وزهيرة تقاومان العاصفة بنفس البطولة ، والنجيلة تحتهما مغطاة بأوراقهما الساقطة ، التي حولت الكرسى القش الأصفر إلى أخضر مثل صاحبه الآخر بلون الجنة . فأترك باب الشرفة وأذهب لأتهالك بجانب المدفأة على الكرسي اللبني الذي كان أزرق ؛ ورائحة المطبخ تغمر الصالة كثيفة مركزة تكاد تصل بالإنسان إلى حد الشبع . وأحياناً تدخل أمينة فتجلس صامتة لتشتغل سطراً في البلوفر الأزرق ، وأذنها مرهفة إلى المطبخ في انتظار صوت لحلة تشكشك فتترك الخيوط وتقوم مسرعة .

فالحمد لله أنها غضبة قصيرة الأمد ، غضبة الشتاء المصري على أبناء وادي النيل . مثل غضبة أب عصبي على أولاده ، صياح وخبط وشخط ونطر ، وصفعة هنا وبونية هناك ، ثم لا يلبث الجو أن يروق ويصفو ، وعلى الأرض الخضراء تسطع دافئة كعهدها شمس السلام .

هكذا وجدتنى مرة أخرى حراً طليقاً في الحديقة ، أنظف الكرسي الأصفر العتيق الذي غسلته المياه فصار أكثر إصفراراً . ومن تحت تمارا جذبته ووضعته في الشمس الصريحة العارية ، الساخنة المقدسة التي تذيب في العروق اليابسة ما تجمد خلال هذين اليومين . وشكراً لجمعة الذي نظف النجيلة مما عليها من الأوراق الذابلة الموحلة ، ورش

عليها بعض الرمل لكي تجف الأرض بسرعة .

وهذا الكرسي محتاج إلى الإصلاح السريع وإلا فسوف أندم ، عندما تنكسر ساقه الخلفية فجأة فأجدني مستلقياً به على النجيلة الخضراء التي لا تزال مبتلة . فأرجو إذا سقطت أن لا تكون أمينة موجودة ولا جمعة ولا حتى موني ، أما الأشجار فلا بأس بالسقوط أمامها لأنها لا تضحك ، أو على الأقل تعرف كيف تداري ضحكها .

وموني هي الأخرى سعيدة بالشمس التي طلعت بعد غياب ، تروح وتجيء هنا وهناك في نشاط طاريء . بل إنها ألصقت بطنها بالأرض مرة وقفزت لتتعلق بجذع زهيرة ، هاربة على سبيل التسلية من خطر لا وجود له .

على النجيلة الخضراء سارت حتى وصلت إلى رقعة من الأرض خفت حشائشها ، فجلست فيها وراحت تنظر إليّ باهتمام كأنها تراني للمرة الأولى . على مؤخرتها جلست ولمت حولها ذيلها الأسود ، مرفوعة الرأس خضراء العينين تتأملني . وذراعاها قائمان أمامها مثل عمودين من الجرانيت الأسود على باب معبد قديم ، صدرها وحده هو الأبيض وجزء من بطنها وكأن المعبد مضاء من الداخل .

وقورة جادة متكبرة ، مستعدة لتلقي فروض العبادة في أي وقت يختاره العباد . خوفو العظيم نفسه أوشك أن يفلس وسط فراعنة المقاولين بناة الهرم ، فقال له الكهنة أن أحداً لن ينقذه من ورطته إلاّ الآلهة القطة باسيت المعبودة شرق الدلتا بالقرب من زقازيق اليوم . فأمر خوفو بمعبد كبير يقام لها هناك ، وفيه تقدم أطايب القرابين من فئران سمينة وعصافير . وحيث أن خوفو قد أقيل من عثرته وأكمل بناء الهرم ، أفليس من الممكن أن تكون الخبيثة باسيت باتعة السر حقاً ؟

هي تنظر في عيني بقوة ، من الأعماق القاسية لعيونها الخضراء . الشر واضح هناك لا يمكنها أن تداريه ، حاقدة فيما يبدو عل أهل هذا الزمن الذين حولوها من آلهة تقدم لها القرابين إلى حيوان يلقى إليه بالفتات . نظراتها تتكلم وأوشك أن أسمع صوتها يقول لي :

- اسمع يا أنت ! لا مانع من التظاهر فنحن لن نخسر شيئاً ، لكنك تعلم جيداً أنني أكرهك ! نعم أنا أتمسح في ساقك في بعض الأحيان مظهرة حبي ، فإذا نمت على حجرك قرأت لك بعض القراءات أعرف أنك تحبها لكن هذه كلها أشياء من متطلبات المهنة ليس إلا . فأنت وقومك قد غرستم في نفسي طبيعة الملق والنفاق ، بعد أن قضيتم آلاف السنين تتولون أنتم تملقي ونفاقي . وأنا الآلهة باسيت روح إيزيس ربة السحر لا أنسى بسهولة ، وسوف أسترد ذات يوم مجدي المفقود وحينئذ سوف تعرفون معنى الثأر حين يكون !

بمثل هذه الكلمات المسمومة لا بد أنها ألقت الرعب في قلوب أجدادي المرهفة فعبدوها ليتقوا شرها ، الكلمات التي تتدفق مثل حمم البركان من أعماق عيونها الشريرة الخضراء .

ومن خلفها أقبل قط غريب يتسحب ، ولا بد أنه واحد من أحفاد أحفادها الذين يملئون الحتة كلها . قط باهت الخضرة مستطيل الجسم ممطوط كأنه فردة شراب حشاها العيال قطناً . شيئاً فشيئاً يقترب منها حتى صارت رأسه لصق مؤخرتها فانتبهت فجأة على أنفاسه الساخنة ، وبسرعة البرق استدارت نحوه ولطشته قلما يهد نمراً مخططاً أو فهداً أرقط ، فانطلق يجري بغير نظام ولا وقار مثلما يحدث في بعض الأحيان في دنيا البشر ، في لحظة عفة زائدة عند أنثى شرسة في أوتوبيس مزدحم . وابتعدت موني نحو الشرفة في هيئة تأفف ، قرفانة من هذا المجتمع

الذي لا يتيح للأنثى العفيفة لحظة تنامها وهي آمنة على شرفها .

وأسفل السور النباتي سمعت خرفشة مألوفة ، ونظرت لأواجه العينين السوداوين الجاحظتين لضفدوع الذي قال لي متسائلاً :

- آووو !

فتلفت حولي قبل أن أجيبه قائلاً على سبيل المجاملة كي لا أكسفه :

- آووو !

فبدا عليه أو عليها الرضاء ، وقفز قفزة أدخلته إلى الشونة . وتذكرت ما قرأت من أن الضفادع قد صارت من الأكلات المفضلة في مطاعم أوروبا الراقية ، أي أنها أكلة خاصة بالصفوة من الناس . وقد عرفت من واحداً يعرف واحداً من تلك الصفوة أن طعمها مزيج من طعم السمك والأرانب ، وهو شيء غير مستغرب من كائن برمائي يجمع بين طبائع سكان الماء وسكان اليابسة . واقشعر بدني وأنا أتخيل نفسي أمصمص الفخذ الرشيق الذي يقفز تلك القفزات اللطيفة لذلك الكائن المحبوب .

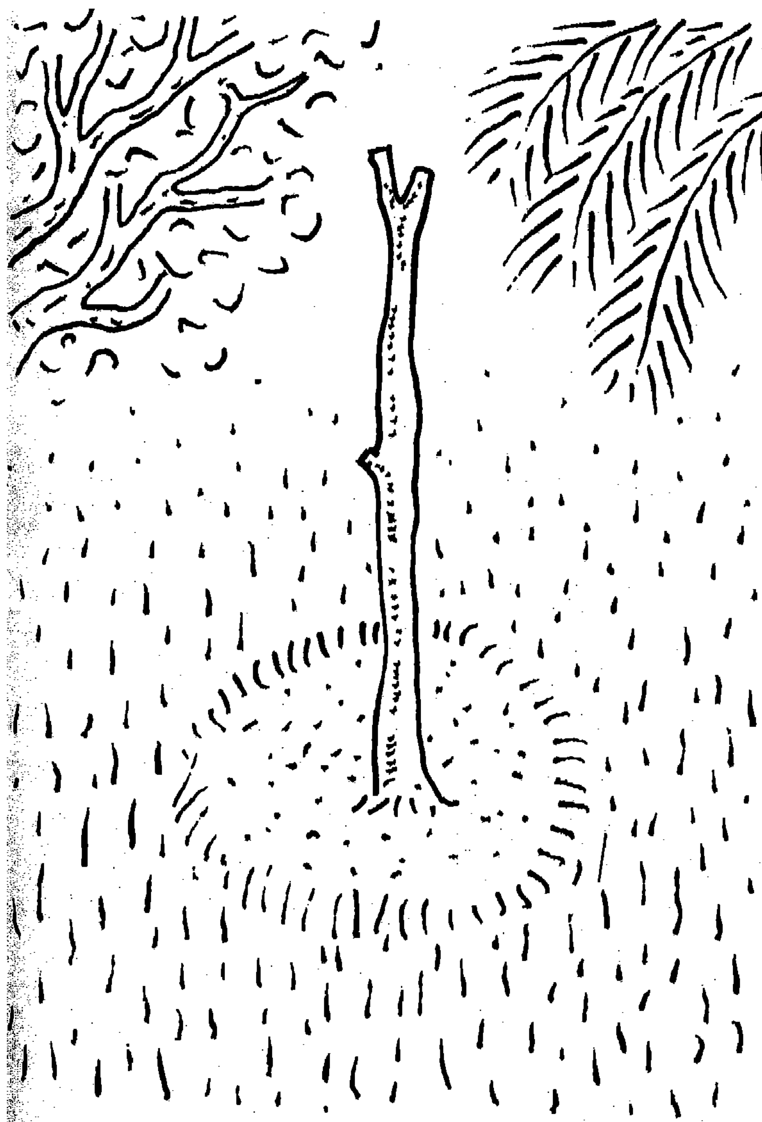
والحمام الشمسي الساخن المقدس قد زاد من قداسته أكثر مما يلزمني ، أذاب ما تجمد في العروق وأوشك أن يذيب العروق نفسها ، فخير لي أن أنتقل تحت قروش تمارا الرفيقة المتراقصة . وهناك تحت تمارا رفعت ذراعي ومددت ساقي لأتمطى ، فإذا بي أفاجأ بنفسي وأنا أميل إلى الخلف وأشرع في رحلة مؤكدة نحو الأرض ، حيث جلست على الكرسي القش العتيق الأصفر ، فما أنقذني من مصيري الأليم الا جذع صديقتي تمارا ، الذي وضع نفسه في اللحظة المناسبة في متناول يدي لكي أتعلق به وأنجو من تلك السقطة المهينة على أرض الوطن .

فجلست حيناً ألهث وأستعيد هدوء نفسي وقد زال الخطر ، ثم

التفت نحو تمارا بكل الحب المتوقع وقلت لها :
– مرسي يا روحي ، ألف شكر . موش عارف أرد جمايلك دي إزاي ؟

وأحطت جذعها العزيز بذراعي وطبعت عليه قبلة امتنان . تلفت حولي لكي أطمئن إلى أن أحداً لا يراني ، عالماً أنه من النادر يوجد بين الكائنات من يدرك المعنى الحقيقي لشعور الإمتنان .

وبالإضافة إلى ذلك خطرت لي فكرة الملاك الحارس الذي يحبني من بعيد لبعيد ، ويسهر على مصالحي ويرعاني ويلهمني بين حين وآخر بفكرة قد تبدو في وقتها غير ذات قيمة وهي في الحقيقة ذات نفع كبير نعم إن الشمس كانت حامية حقاً ، وأنني كنت سأنتقل من نفسي حيث أحتمي بأغصان تمارا ، لكن ما الذي جعلني أنقل الكرسي الأصفر إلى هذه النقطة بالذات ، النقطة الملاصقة لجذع صديقتي حيث يمكنني أن أتشبث به عند اللزوم ؟ لو أنني لم أفعل ذلك كيف كان الحال يكون وأنا ساقط على النجيلة كالجردل بالكرسي الأصفر العتيق ؟



الفصل الثامن

« من أين جاءت الشجرة الغريبة التي عندها كلام ؟ » .

الشجرة الغريبة

في ركن من أركان الممشى الجانبي وأنا أتمشى فوجئت بها أمامي ، تلك الشجرة الغريبة التي لا أذكر أنني رأيتها هناك من قبل . ولا جمعة طالبني بثمنها كعادته كلما أحضر شيئاً ولو كان عوداً يابساً ، ولا علمت من أمينة أنه طالبها .

شجرة بارتفاع صدري تقريباً ، ذات جذع رفيع وأوراق كبيرة مفلطحة تتناقض بشدة مع حجمها المحدود ، ولذلك لا يحمل الغصن الواحد أكثر من ورقتين أو ثلاث ورقات . والأوراق نفسها ذات ألوان غريبة متمردة على كل ما أعرف عن النبات من حب للنظام والسمترية . هذه ورقة زيتية غامقة وتلك فاقعة الخضرة فزدقي ، وثالثة مقسومة بجرأة غريبة إلى نصفين طوليين أحدهما أخضر عادي والآخر برتقالي صارخ بلون العجور ! وأخرى ذات لون بمبي مسخسخ ، وفي أسفلها علامات غريبة باللون الأخضر تشبه شخبطة الرسام بفرشاته على باليتة الألوان .

فقلت لجمعة لما رأيته :

– ايه الشجرة دي يا جمعة ؟

– دي اسمها أكاليفا يا بيه !

– أكا ايه ؟

– أكاليفا .

- يعني ايه ؟
- معرفش يا بيه ، هم في المشتل بيقولوها كده !
- أنت اللي جايبها ؟
- في الحقيقة لا يا بيه !
- أمال جت منين ؟
- لازم كان فيه عقلة قديمة مستخبية تحت الأرض وطلعت مع العزيق . دي بكرة تكبر وتبقى شربات !

فلست أدري كيف سأعود نفسي على هذا الأسم الغريب أكاليفا ، حتى بعد اختصاره الحتمي إلى ليفا . كما لن أهضم فكرة أنها كانت مدفونة تحت الأرض وطلعت لوحدها ، فكرة لا تملأ الدماغ تماماً . لكنني مضطر في الوقت نفسه – ما دام جمعة قد رأى مثلها في المشتل – إلى استبعاد تلك الفكرة المثيرة عن كونها شجرة من الفضاء الخارجي وصلت الينا في نيزك صغير لم يلتفت إليه أحد . وناظراً إلى النقوش الخضراء على الورقة البمبي عراني شعور غريب بأن هذه الشجرة تريد بلغة ما لا نعرفها أن تقول لنا شيئاً . نعم ، ليفا تكفيها على سبيل الأسم ، اللهم إلا إذا كنت مطالباً – ما دمت أكتب ملاحظاتي باللغة العربية – بأن أواصل أصول التعريب إلى النهاية فأسميها أقاليفا .



الفصل التاسع

«كلب عنده عشم – رسالة من الحبيب – لماذا هذه الدوخة – تذكرة عبر العالم – الولد الجاهل بصيغة المثنى» .

فيدو يتشمس
رسالة حمادة والدوخة

السلالم الأربعة المؤدية من الشرفة إلى الحديقة ، أليس مضحكاً أنني بدأت أحمل هم نزولها وطلوعها ؟ فلو أن الروماتيزم مرض معد لقلت أنه قد انتقل من ركبة أمينة إلى ركبتي . فإذا ما انتهيت من نزول السلالم فيجب عليَّ أن أرفع قدمي إلى أعلى وأخطو بها أوسع خطواتي ، كي لا أدوس على طابور النمل الشغال هناك طول الوقت . وهما في الحقيقة طابوران لا طابور واحد ، أحدهما يسعى من سلم الشرفة إلى المحيط الحجري الواطي للنجيلة ، والآخر عكس ذلك تماماً . في الطريق تتقابل النملتان فتتبادلان ما يشبه القبلة الخاطفة ثم تواصلان مشوارهما الأبدي في صمت . لا أعرف ماذا ينقلون ولا فيما يضيعون وقتهم طول اليوم .

فما كدت أستقر على الكرسي القش الأصفر حتى رأيت في آخر الحديقة منظراً بدا لي غريباً نوعاً ، وإن كان في الحقيقة ليس غريباً على الأطلاق ، فما وجه الغرابة في كلب نائم يتشمس ؟ لكنه نائم في حديقتي ، فإلى متى يظل هذا الغبي جاهلاً بأنه محرم عليه أن يحمل نجاسته إلى أرض حديقتي الطاهرة ؟

هو كان يراني من قبل أن أراه ومع ذلك لم يتحرك ، كل ما فعله حيث رقد ممدود العنق على الحشائش ، هو أن رفع نحوي عيناً سوداء

بئة بالعشم وهز ذيله عدة مرات . فهل عرف الوغد أن لي فيه رأياً مختلفاً
ن رأي أمينة ، وأنه ليس مضطراً إذا رآني أن ينهض مذعوراً ويأخذ
وجهه كالمجنون ؟

وفي عينيه السوداوين الذليلتين سمعت صوتاً متوسلاً يقول :

وحياتك يا بيه سيبني أتشمس هنا حبتين . أنا عارف ان عندنا شمس
الشونة لكن أنا نفسي ف شمسكم ، خصوصاً وسيادتك قاعد معايا
ده زي ما نكون عيلة واحدة . وعلى فكرة يا بيه ، الست خرجت من
ريه !

فن أنا حتى أرفض كل هذه التوسلات وأقضي على هذا الكائن
مس بالحرمان من متعة شمس ومجلس ؟

والله يا صوت سيده — هكذا قلت له في عقلي ، إني لأتمنى أن
هض لكي أحضر لك شيئاً تأكله من المطبخ ، لكنك طبعاً تعرف
اعب الرحلة . طابور النمل الذي يجب أن أتخطاه ثم السلالم الأربع ،
البحث في المطبخ عن حلة فيها شيء يناسبك وعن كبشة لزوم الغرف ،
عاء قديم يمكن أن يوضع أمام كائن نجس مثلك . ثم السلالم مرة
نرى وطابور النمل ، وأنت تعرف ما قد بدأ عمك يعانيه من آلام
وماتيزم .

فخيل إلي أنني رأيت في عينه نظرة فهم وامتنان ودعاء لي بأن يظل
ي عامراً أبداً ، وأنه لا يطمع في شيء مني سوى متعة الشمس والمجالسة .

وعند باب الحديقة ظهرت أمينة يتدلى من يدها كيس من الورق
موي البقالة التي خرجت لشرائها ، فانتبه الكلب على صرير الباب
ب مذعوراً يجري ، قاصداً إلى الثغرة التي تسلل منها في السور النباتي .

فلم تبصر أمينة شيئاً منه سوى مؤخرته قبل أن يختفي ، ومع ذلك صاحت به زاجرة :

- إمشي جك وجع في بطنك !

ثم لي أنا :

- وسيادتك مضايفه معاك هنا ولا إيه ؟

فلم أجبها ، وكانت قد وضعت الكيس على الأرض وانحنت تدعبس فيه على شيء ما .

- البوسطجي قابلني في السكة واداه لي ، هو راح فين ؟

وأخيراً وجدت المظروف الذي تبحث عنه فالتقطته واعتدلت به واقفة بسرعة ، فما كادت تفعل حتى رأيتها تترنح وتتأوه وتسرع بجذب الكرسي الأخضر الذي جلست عليه ، رافعة كلتا يديها لتضغط بهما على جانبي رأسها وهي تعض على شفتها السفلى .

- مالك يا أمينة ؟

فلم تجب من فورها ، كعادتها عندما تشعر بشيء يؤلمها ، كأنما لتزيد السائل قلقاً عليها . وأخيراً قالت بلهجة تأكيد :

- إذا فضلت كده ح اجيب الدكتور فتحي .

وسكتت من جديد فقلت في إلحاح :

- موش أفهم مالك ؟

- بقى لي كام يوم كل ما أوطي في الأرض أعمل حاجة وآجي قايمة مرة واحدة أحس بدوخة ، وشواكيش تدق في دماغي .

وانتظرت دقيقة حتى هدأت حالها ثم بدأت تفض المظروف الذي في يدها لتخرج منها رسالة عادية بخط حمادة ، وورقة حمراء غريبة بخط المطبعة ، فقلبت تلك الورقة حيناً بين يديها ثم دفعتها نحوي قائلة :

ـ شوف دي تطلع ايه .

وطلعت تذكرة طائرة صالحة لرحلة إلى لوس أنجيلوس ذهاباً وإياباً . وفي الرسالة المرفقة تفسير لها من حمادة يقول .. « وهذه تذكرة إلى لوس أنجيلوس أخذتها بسعر رمزي من شركة الطيران التي التحقت بها أخيراً ، فيا حبذا لو حضر بها أحد منكم ليتفرج على أمريكا ، والإقامة على حسابي طبعاً » .

فحمادة إذن ما زال حمادة ، ذلك الجاهل الأزلي يعلم النحو ، الذي يخاطب والديه مستخدماً ضمير الجمع في منكم بدلاً من ضمير المثنى في منكما . وخبر آخر في الرسالة أسعدنا بشدة وهو أن الولد قد ترك ماساشوستس إلى كاليفورنيا حيث الشمس الساطعة والنسيم العليل ، وحيث استقر في وظيفة طبية بإحدى شركات الطيران . وأخيراً ستستطيع أمينة إذا سألها أحدهم أين يقيم ولدها في أمريكا أن تقدم له إجابة صحيحة .



الفصل العاشر

« طفلة عجوز نائمة – اليوم الذي لعب فيه الولد – سر الابتسامة الممنوعة » .

الولد يلعب

مثل طفلة صغيرة تنام أمينة ، وكل الناس أطفال إذا ناموا . طفلة في الستين من العمر ، فاغرة الفم في تلك البلاهة التي تميز الإنسان إذا انفصل عن عالم الوعي . أرجو أن تكون أحلامها في كاليفورنيا أو حتى في ماساشوستس ، أو أي مكان عدا ذلك الذي من أقصاه جاء الرجل يجري . سمعتها قرب الفجر تفتح الثلاجة وتأكل منها بشراهة كما كانت تفعل زمان عقب الكارثة . وبينما هي عائدة كانت تلهث وتكلم نفسها قائلة .

– يحميك يا حمادة ! يحميك يا حمادة ! يحميك ويخليك يا حمادة !

وهنا عاودت النوم ناسية على غير عادتها أن تطفىء الأباجورة .

وذات يوم كانت هذه العجوز المسكينة شابة حلوة شهية مليئة برغبة الحياة ، وبالطفل الذي قدر له فيما بعد أن يضيع . على كنبة تمددت منذ سنوات طويلة تقرأ ، وفجأة هتفت تناديني قائلة :

– تعالي قوام ! إجري أمال ! هات إيدك !

وخطفت يدي لتضعها على نقطة من بطنها قائلة في فرح بالغ :

– حاسس بيه ؟ بيلعب ! والنبي بيلعب !

الجنين الذي انقضى شهر كامل وهي تنتظر منه أية إشارة تثبت وجوده ، فعلاً أحسست به يتفزز ويتلوى تحت يدي ، الكائن الغريب

الذي يتغذى في جوف الظلام على دمائها .

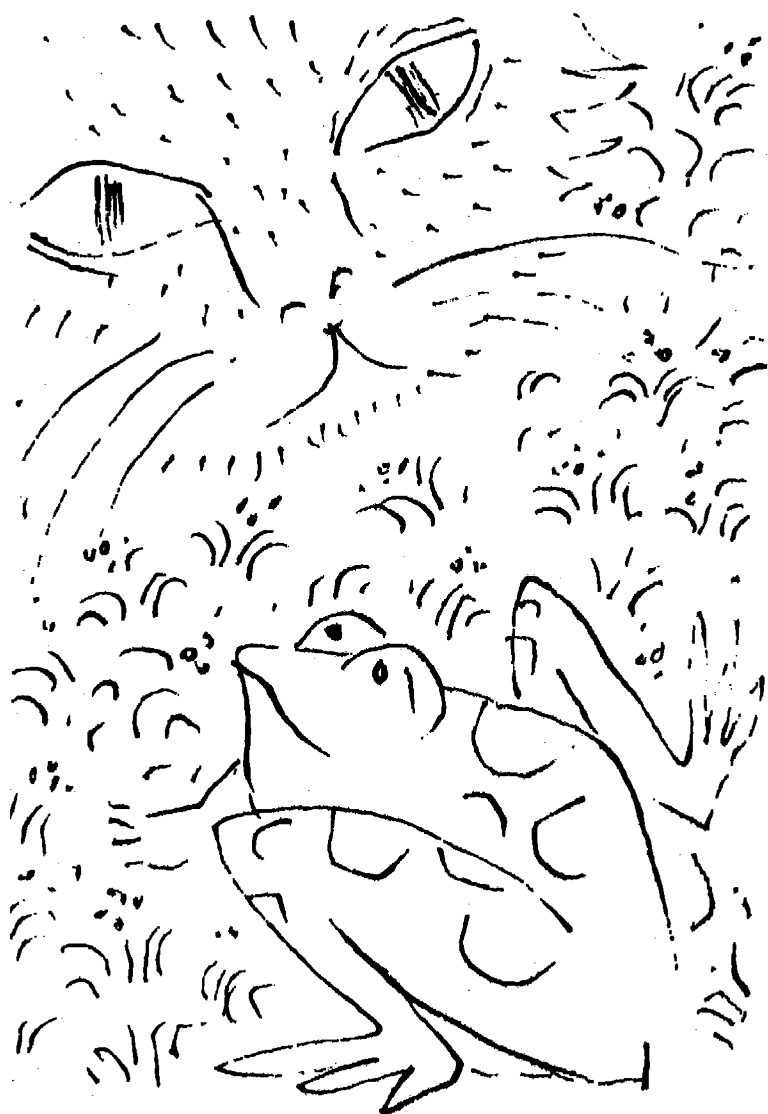
- لازم أقول لماما !

وثبت لتطير النبأ السعيد إلى جميع الأهل والأحباب . وعلى ضوء الأباجورة التي نسيت أن تطفئها رأيت صورتين للولد الذي ضاع . صورة له وهو طفل يصرخ ويضرب الهواء بذراعيه ، والأخرى لشاب وسيم يغالب ابتسامة تريد أن تفرض نفسها على الصورة . وذات يوم - رحمة بها من قسوة الذكرى المستمرة - عرضت عليها أن ننقل هاتين الصورتين إلى مكان غير حجرة نومنا ، فلمعت عيناها ببريق غريب أفزعني ، وقالت بصوت أجش :

- أنت بتخرف تقول ايه ؟ أنا اشيل صور إبراهيم من جنبي ؟ ده حبيبي أنا ! دول يفضلوا قدام عيني هنا على طول ، لحد ما ربنا يئذن لي وأروح له أنا بنفسي !

وكثيراً ما ضبطتها واقفة أمام الصورتين بلا مناسبة ، أو جالسة على حافة السرير تتأملهما وتتشرب بهما وهي تتمتم بالصلوات ، وبين حين وآخر ترفع يدها لتمسح عن عينها دمعة جفت من زمان .

وسعلت أمينة سعلة جافة ومدت يدها تتحسس الأباجورة لتطفئها .



الفصـل الحادي عشر

« زاهدة في الضفادع – لا تلدغ الآلهة مرتين » .

موني والضفدعة

لا شك أن المسمار الذي دققته في الساق الخلفية للكرسي القش الأصفر قد عمل عملاً ، لكنه بالطبع ليس غاية المراد من رب العباد . فأرجو أن تكون عزيزتي تمارا وجذعها المتين مستعدين لإنقاذي مرة أخرى من بهدلة السقوط .

بالقرب مني تنام موني آمنة في حماي من المتطفلين ، وخرفشة مفاجئة تحت السور النباتي فرفعت رأسها ونظرت إلى حيث نظرت ورأينا ضفدوع ، فسرعان ما خفضت موني رأسها وعاودت النوم ، نادمة على الجهد الذي بذلته في رفع رأسها . وقد يتساءل غير خبراء الحدائق عن السبب الذي من أجله تزهد قطة ذواقة مثل موني في لحم كائن ملظلظ كالضفدعة ، وهو لحم يقدمونه كما نسمع في أرقى المطاعم الأوروبية . وذات يوم كانت موني صغيرة قليلة التجربة ، فوقعت أمامي في نفس هذه الغلطة التي يقع فيها غير خبراء الحدائق .

خرفشة مماثلة في السور النباتي ما كادت موني الصغيرة تسمعها حتى ألصقت بطنها بالأرض إيذاناً بالهجوم ، وهزت مؤخرتها تلك الهزة التقليدية ثم انطلقت كالسهم نحو الهدف ، فما كادت تصل إليه حتى فرملت وتوقفت وبدا لها أنه يحسن بها أن تعيد حساباتها ، فهذا الكائن لم يكن يسير مثل كل الكائنات بل كان يقفز ، ذلك

السلوك الذي تعودت عليه من الجراد والنطاط وغيرها من الكائنات الصغيرة ، أما أن يأتي ذلك السلوك من هذا الكائن الكبير فأمر بدا لها غريباً منه أو على الأقل غير لائق به .

مدت يداً حذرة مستكشفة ضربت بها على ظهر الضفدعة ضربتين خفيفتين ، فلما رأتها لم تفعل شيئاً خفضت بيدها على ظهرها لكي تثبتها على الأرض فثبتت ، راغبة في التعاون إلى النهاية مع القطة الصغيرة العبيطة ، فعمدت موني إلى الاجراء الأخير الحاسم بأن قربت أنفها من ظهرها لكي تشمها مع لحسة صغيرة مستطلعة ، فما كادت تفعل حتى سحبت رأسها بسرعة ووثبت إلى الخلف كأنما تكهربت . بيدها تدعك أنفها بشدة لتمحو عنها شراً علق بها ، مع هز رأسها بقوة لتتخلص من كافة آثار هذا الشر . فلو انها وجدت نفسها في الحمام لما استغربت لو رأيتها تغسل وجهها بالماء والصابون .

وكان هذا حسبها من الضفدعة التي ظلت جامدة في مكانها – ساخرة في أغلب الظن من القطة العبيطة – حتى تأكدت من انتهاء المناوشة فقفزت قفزتين دخلت بهما إلى الشونة من تحت السور النباتي .

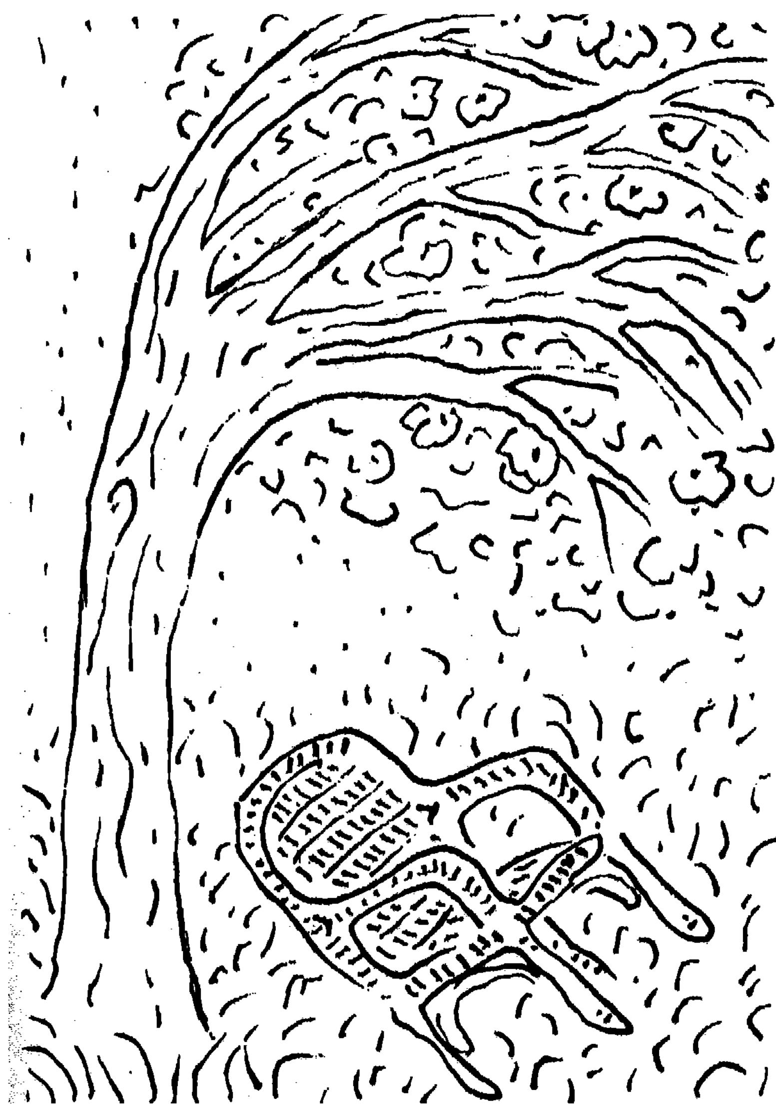
كان درساً مفيداً لموني ولي ، وفي بعض الكتب التي تهتم بالحيوان عرفت سر المسألة ، كيف أن الطبيعة وقد رأت الضفدعة غير مهيأة للقتال ولا للفرار بهذه الصورة المزرية بالكرامة الحيوانية ، عملت إلى تزويدها بغدة خاصة تفرز عند اللزوم مادة كريهة الرائحة والطعم شبه سامة ، فما يكاد المهاجم الجاهل يتعامل معها حتى يحدث له ما حدث للصغيرة العبيطة موني .

فهذا الضفدوع ليس بريئاً بقدر ما يوحي به منظره الفكاهي ، وليس يوجد بين الكائنات فيما يبدو كائن بريء ، ترى هل الأمر كذلك

مع الفراشة اللطيفة البيضاء ؟ وكان ما زال يتلكأ - ضفدوع - تحت السور النباتي ، وقفز قفزة ثم قال لي مودعاً :

- آووو !

فتلفت حولي قبل أن أرد عليه السلام ، حيث أجلس على الكرسي القش العتيق الأصفر .



الفصل الثاني عشر

« ملاكي الحارس ، أحبك - منظر مريب على جذع رينا - اكتشاف موهبة الصراخ - رينا ضد المقطورة - غصن امتنان يختلج » .

ربنا والملاك الحارس

مرة أخرى أشعر أنني يجب أن أصدق حكاية الملاك الحارس الذي يسهر على مصالحي ويرعاني ويجنبني الكثير من بلاوي الزمن ، وإلا فما الذي دفعني في ذلك اليوم إلى أن أخرج إلى الشرفة مبكراً عن موعدي بساعة ، في تلك اللحظة الحرجة الحاسمة التي تفصل بين الحياة والموت ؟ فما كدت أخرج حتى رأيت على الجذع الطويل وراء السور شيئاً يوشك من فرط غرابته أن يدخل في باب اللامعقول . رأيت رجلاً أسمر اللون قبيح المنظر (والمخبر غالباً) يحتضن الجذع الرشيق بذراعيه ويحيطه بفخذيه ويتسلقه بخفة القرد ، خصره مشدود إليه بحزام خاص وفي يده بلطة كبيرة لامعة ، الأمر الذي لا يترك أي مجال للشك في العمل الوضيع الذي يقترفه ذلك المجرم الأثيم .

فلو أنني مصاب بمرض في القلب لسقطت من طولي صريعاً ، والحمد لله أن الروماتزم ليس من الأمراض التي تمنع الرجل من الصراخ عندما تدعو إليه الحاجة . من أعماق قلبي الملهوف أطلقتها عدة صرخات متلاحقة هزت أركان الحديقة هزاً ، صرخات ما كنت أحسبني قادراً على أن أطلق مثلها ما حييت .

– جمعة ! يا جمعة ! أنت فين يا جمعة ! يا بن الكلب يا جمعة ! جمعة ! جمعا !!!! ه !

الرجل قبيح المنظر والمخبر تجمد على الجذع الطويل الرشيق ، وصوت جمعة أتاني من آخر الشونة يقول بدهشة واضحة :

- أيوه يا بيه ، فيه حاجة يا بيه ؟

- تعالى هنا حالاً !

فرأيت الخيمة البيضاء تقترب مهرولة وراء السور النباتي ، وأتاني الصوت المبحوح متسائلاً في براءة .

- أي خدمة يا بيه ؟

فقلت بصوت بذلت أقصى جهدي لكي لا يكون متهدجاً :

- الراجل ده بيعمل ايه ع الشجرة ؟

فقال جمعة ببساطة :

- ح يقطعها يا بيه !

فصرخت به في جنون :

- يقطعها يعني ايه؟ هي فوضى ؟

- الحاج زكير هو اللي أمر بكده يا بيه ، عشان المقطورة الجديدة يعني .

وشرح لي كيف أن المقاول صاحب الأرض قد اشترى للوري مقطورة جديدة ضخمة ، وكيف أنه حضر بالأمس وحاول أن يدخل بها إلى الشونة فتعذر عليه ذلك بسبب الشجرة التي تسد الطريق فأمر باقتلاعها .

- ببساطة كده ؟

- ده اللي حصل يا بيه .

- طب ما يوسع باب الشونة ؟

- توسيع الباب فيه صرف فلوس ، لكن قطع الشجرة ح يجيب فلوس !

- طب لف وتعالى لي هنا .

وقبل أن يصل جمعة كنت قد أعددت في جيب الروب ورقة بخمسة جنيهات ، وبينما أنا أكلمه كانت يدي تتقبض عليها كأنما أستمد قوتي منها . قلت له بأكثر ما أتيح لي من هدوء :

– شوف يا جمعة ، بصراحة كده الشجرة دي عزيزة عليَّ . يعني زي ما تقول اتعودت عليها وبقت حتة م الجنينة .

فقال وفي صوته المبحوح رنة حزن :

– والله وعزيزة عليَّ أنا كمان يا بيه ، غير شي أنا عبد المأمور ؟

– خلاص يا جمعة ، ما تقطعهاش . عشان خاطري أنا يا جمعة .

ولمست في صوتي نبرة توسل لم تعجبني ، وقال جمعة في حيرة :

– بس أقول ايه للحاج زكير ؟

– قول له أي حاجة . خد .

ومددت الورقة السحرية نحوه قائلاً :

– راضي الراجل ده بحاجة والباقي لك أنت .

ويبدو أن رائحة الورقة نفاذة أكثر مما قدرت ، إذ صاح الرجل الذي على الشجرة فجأة يقول :

– اشتغل ولا ما اشتغلشي ما تفهمونا ؟

فقال له جمعة :

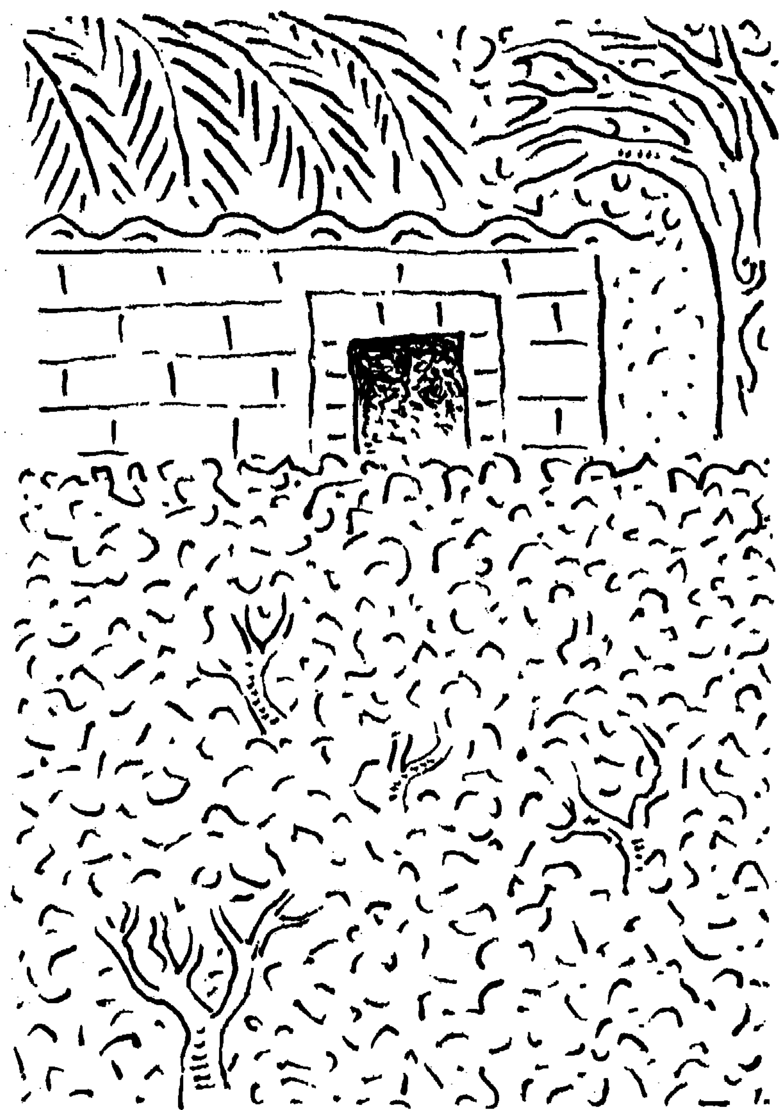
– انزل يا عبده وأنا جاي لك آهه .

فراح الرجل يبرطم قائلاً !

– اطلع يا عبده انزل يا عبده ، ربنا يتوب علينا م الشغلانة دي !

ودس جمعة الورقة في أعماق جيبه الفسيح وابتعد متمايلاً . فتمنيت من أعماق قلبي أن أعرف أين يوجد ذلك الملاك الحارس لكي أذهب إليه وأفيه حقه من الشكر وأكافئه أن كان هذا ممكناً .

وعبر السور تبسمت للعزيزة رينا – التي كان يمكن أن تكون في هذه اللحظة كتلة خشب كبيرة ميتة على أرض الشونة – وأرسلت لها قبلة على الهواء ، فرأيت غصناً من أغصانها يختلج بغير ما ريح تحركه ، وهـذا في اعتقادي أقصى ما يجب أن يتوقعه رجل عاقل من شجـرة كزورينا على سبيل اظهارها للإمتنان .



الفصل الثالث عشر

« اسطوانة سكتت – إمرأة باردة البطن – واجب العزاء لصوت سيده – لحستان نجستان لا لحسة واحدة » .

موت شحاتة

– يا بختك يا خويا بنومك ! بذمتك ما سمعتش حاجة خالص ؟

هكذا صبحتني أمينة وأنا جالس أشرب الشاي على الفوتي اللبني الذي كان أزرق ، في الكوب الكبير الخزف البني ، الموضوع على الترابيزة المستديرة التي لا أذكر لماذا ولا متى طليت بهذا اللون الأسود الحاسم .

– ده صواتها كان واصل للسما !

صوت أم شحاتة كما شرحت لي ، حين فوجئت الولية وقت صلاة الفجر أن ولدها قد كف عن البكاء بغير مناسبة ، ولا هو يتحرك ولا حتى يتنفس أو يستجيب لضربات اليد ، فرقعت بالصوت وجمعت حولها بعض النسوة من الجيران . ساعة كاملة وهي تبكي وتلطم وتعدد على الطفل الميت في حجرها ، حتى أقبلت الحرمة المختصة بتغسيله وإعداده للدفن . وهو ثالث طفل يموت لجمعة كما رددوا من جديد ، وعن جمعة قيل إنه قال في محاولة لتفسير ذلك :

– مرة بنت كلب بطنها باردة ، كل عيالها تنزل ناقصة سوا !

فقررت أن لا أنزل إلى الحديقة تحاشياً لجو الشونة الحزين ، وصوت النائحات اللواتي يتناوبن سرد الحكايات عن عيال ماتوا :

– يا ست هانم يا حاجة !

صوت جمعة عند باب المطبخ فقصدت أمينة إليه وعادت بعد لحظات قائلة !

- شوف له اتنين جنيه غلبان يدفن بهم الواد .

فأعطيتها الجنيهين ونهضت متحاملاً لكي أؤدي واجب العزاء البغيض للرجل المنكوب .

- البقية ف حياتك يا جمعة !

- حياتك الباقية يا بيه .

- شد حيلك ، كلنا لها .

- كله على الله يا بيه .

وحيث وقف في الحديقة عند باب المطبخ لمحت عند قدميه شيئاً غير طبيعي ، الكلب صوت سيده وقد دخل إلى الحديقة مع صاحبه للمرة الأولى ، ووقف ينظر إلينا في بلاهة ويهز ذيله . ولم يكن غريباً من أمينة أن تسمح له اليوم بالدخول ، فللموت رائحة أقوى من كافة الروائح حتى رائحة النجاسة . واستأذن جمعة وابتعد في خيمته مطرقاً ، حاملاً كما يبدو هم عملية الدفن أكثر منه حزيناً على الطفل الذي مات .

أما أنا فلم أجد في نفسي ذرة واحدة من الحزن عليه ، ولربما كنت أقرب إلى الارتياح وقد خلص هذا الكائن التعس من ترديد ذلك اللحن الجنائزي الصديء الذي لم يعرف قط غير كلمة آه .

ثم غامرت بعد حين بالنزول إلى الحديقة وقد خيم الصمت على الشونة إلا من صراخ الفرخة التي تبيض . على الكرسي القش الأصفر جلست مستمعاً إلى صوت السكون ، ثم ساورني إحساس بأنني تحت المراقبة . وفي الثغرة القريبة من السور رأيت البوز الطويل البني لصوت سيده وهو ينظر نحوي متسائلاً : هل أدخل ؟ وبالرغم من أنني لم أجبه

فأنه دخل ، وبالقرب مني وقف يهز ذيله حائراً ماذا يفعل بنفسه وقد أصبح في الحديقة المحرمة ؟ فأحسست برغبة ملحة في أن ألمسه ، وإن ساورني في الوقت نفسه نوع من النفور بسبب فكرة نجاسته ، فما لبثت أن ضحكت من نفسي ومددت يدي نحوه داعياً .

– تعالى يا فيدو . قرب هنا .

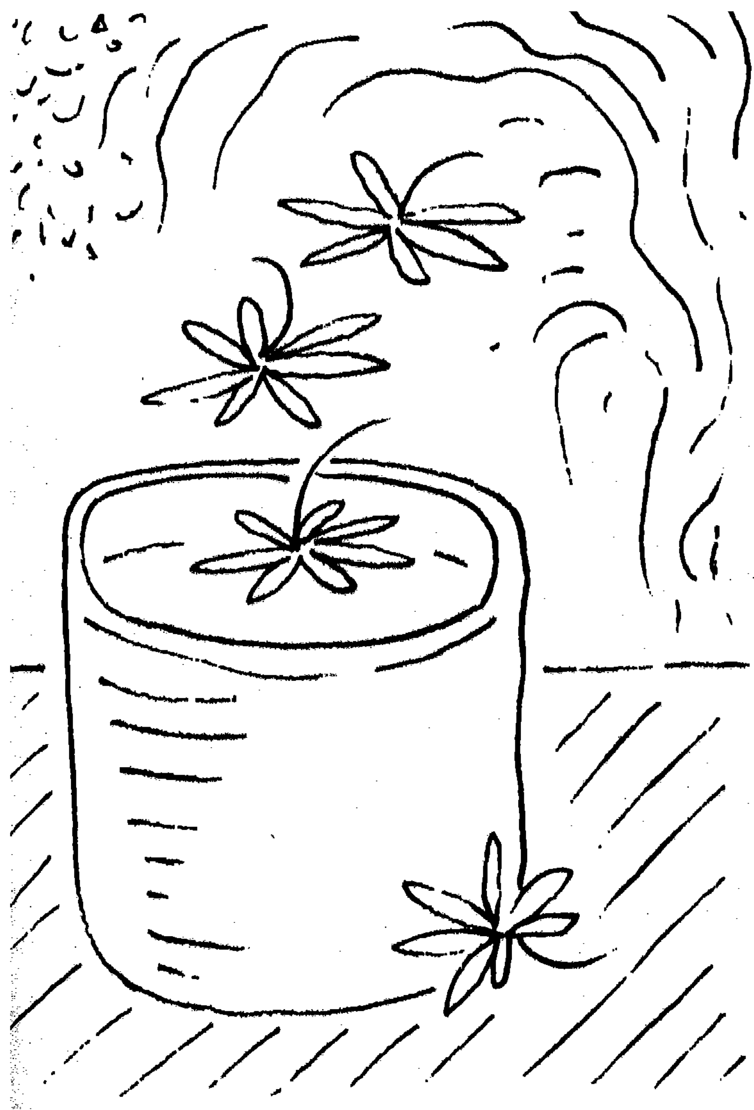
فكان دوره في أن يتردد إزاء هذه المبادرة التي لا سابقة لها ، ثم بدأ يتحرك نحوي على مهل . خطا خطوتين وتوقف ، ثم خطوة أخرى جعلته أمامي . ونحو يدي الممدودة أدنى رأسه وخفضها لكي يتيح لي أن أربت على دماغه البنية العارية من الشعر .

– أنت صحيح نجس يا فيدو ؟

هكذا سألته فأصدر صوصوة خافتة غير مفهومة ، وأضفت قائلاً :

– البقية ف حياتك يا سيدي .

فهز ذيله بشدة حتى رقصت مؤخرته كلها ، وكانت طريقته في رد العزاء أن مال برأسه وخطف من ظهر يدي لحستين لزجتين بلسانه الطويل الأسود النجس .



الفصل الرابع عشر

« لا تسرف في القلق على زوجتك – ماذا عن التذكرة ؟ – العجوز والكوافير وشاي بالياسمين » .

أمينة في السرير وشاي بالياسمين

طول عمري أقلق على أمينة إذا مرضت مهما كان مرضها تافهاً ، وكنت أفسر ذلك بشدة حبي لها وخوفي عليها ، إلى أن تدخل في الأمر عالم وغد من علماء النفس فأخطرني بأن إسراف الإنسان في القلق على المريض ما هو إلا محاولة لا شعورية من عقله الباطن لإخفاء رغبة كامنة هناك في أن يكون ذلك المرض قاتلاً ! فأزعجني ذلك الكلام بالطبع ، لكنني تجاهلته بصفته رغبة لا شعورية عند صنف من علماء النفس في تشويه كافة الدوافع النبيلة وتعكير مزاج أصحابها .

غير أنني معذور في قلقي عليها هذه الأيام ، بسبب تلك الدوخة التي أصبحت زائراً شبه يومي لها. فاستدعينا الدكتور فتحي ، الرجل القصير النحيف الهادئ إلى درجة البرود ، طبيب الأسرة منذ سنوات . بدقته الشديدة وأناته المعهودة كشف عليها ، وراح يستبعد على طريقته ما يجب استبعاده من الأمراض ، ثم قال بصوت محايد :

— ضغطك مرتفع شويه ، قللي الحوادق . ويا ريت تعملي لي تحليل سكر .

وكان تحليل السكر سلبياً ، فأمرها بأسبوع من الغذاء الصحي والراحة في السرير مع بعض الأدوية .

وهناك قالت لي أمينة وقد رأتني جالساً أمامها لا أتحرك :

— أنت ح تربط نفسك جنبي كده ليه ؟ قوم على جنينتك جنب أشجارك !

وسحبت بلوكنوتا وقلماً وقالت :

- دنا ح اكتب جواب لحبيبي .

فما كادت تشرع في الكتابة حتى بدت عليها الحيرة وقالت :

- بس ح اقول له إيه على تذكرة الطيارة ؟

فاقترحت عليها أن تكتب اليه عن الفرق بين الجمع والمثنى عند مخاطبة الوالدين ، لكنها قالت متجاهلة :

- اقول له إيه صحيح ؟

- ح تقولي له إيه ؟ قولي له كتر خيرك وموش عاوزين النهاردة !

فقالت متخابثة :

- طبعاً أقول له يبعت كمان واحدة ، يمكن تطلع في دماغك تاخدني ونسافر !

فقلت ساخراً :

- أنا أسافر أمريكا ؟ دنا باسافر بالعافية لآخر الجنينة !

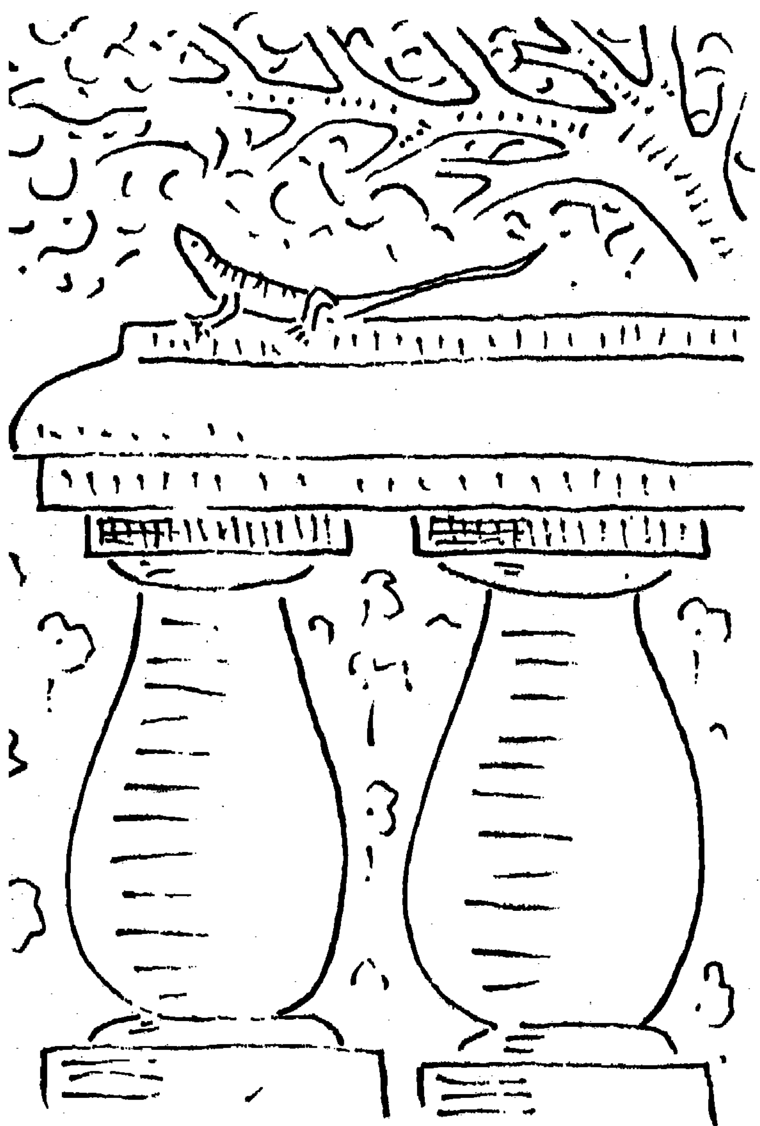
ونهضت فأحسست بالوخز في ركبتي كأنني طلعت السلم .

- أنا قاعد جنبك في البلكونة هنا ، إذا عزتي حاجة .

وتركتها وهي تعض القلم في حيرة ، تلميذة ملخومة في الستين . وفي الشرفة جلست على الكرسي القش الأحمر بعد أن نظفته من زهور الياسمين . الوقت أصيل وأنا لا أحب الأصيل وأفضل أن أقضيه نائماً . هو أشبه شيء بامرأة عجوز تذهب إلى معهد التجميل كل يوم ، وتعود منه لتجلس أمامي محاولة أن تستكشف رأيي في عيني ، وهو الرأي الذي يخيب رجاءها على الدوام فتشيع في تجاعيد وجهها صفرة تشبه صفرة هذا الأصيل . وظلال الأشجار قد بدأت تستطيل وتتداخل فأعتمت

الحديقة قبل موعدها . والشجرة الطويلة الرشيقة المهندمة قد اكتست بغلالة حزينة صفراء .

وبجانبي سقطت زهرة ياسمين في الكوب الخزف البني ، طفت على سطح الشاي مثل زهرة لوتس على سطح بحيرة مقدسة . وأمينة مثل الكثيرين تحب أن تشرب الشاي بالنعناع ، فلماذا لا أكون أنا أول من يجرب شربه بالياسمين ؟



الفصل الخامس عشر

« لماذا لم تأكل القطة السحلية ؟ — غذاء العيال الحلوين — الأمهات الحنونات الفاتنات » .

القطة والسحلية

موني راقدة على جنبها تلمس صدرها الأبيض وما يطوله لسانها من بطنها ، مثلما كانت تفعل زمان في عهد الشباب في أيام الحمل الأخيرة ، إذ تريد أن تجهز أثداءها الستة لاستقبال القطيطات العزيزة المرتقبة . لكن اليوم بالطبع لا تهدف إلى شيء أكثر من النظافة العامة .

رأيتها في مثل هذه الرقدة ترضع أربع قطيطات مختلفة الألوان ، عالقة بصدرها وبطنها مثل ديدان كبيرة شرهة تلتهمها التهاماً . وهي مستسلمة سعيدة تمد لسانها بين حين وآخر لكي تلمس ظهور القطيطات وتنظفها ، وفي قول آخر أنه لا نظافة هناك ولا يحزنون ، وانما هي تريد الانتفاع بما يوجد بوفرة في فروة القطيطات من فيتامين ب .

ولأمر ما رأت أن تقطع عملية الرضاعة وتنهض ، متخلصة بصعوبة من الديدان المتشبثة بجسمها . وهناك في الركن تركتها واتجهت مسرعة نحو السور النباتي ، ناظرة إليّ وهي تنونو كأنما تقول :

– خلي بالك م العيال !

ولم تغب في الشونة أكثر من لحظات ثم عادت متواثبة في نشاط ، من فمها يتدلى شيء طويل يتلوى قد يلتبس أمره على غير خبراء الحدائق ، أما الخبراء ، فيعرفون فيه على الفور سحلية سمينة نصف صاحية . ويتساءل غير الخبراء عن السبب الذي من أجله لم تأكل القطة تلك السحلية ،

فيجيبهم الخبراء بأنها ما صادتها لتأكلها وإنما صادتها من أجل العيال الحلوين ، الذين لم يعد لبن الأم يكفيهم وصار تنويع الغذاء أمراً ضرورياً لصحتهم .

بالسحلية قصدت اليهم ووضعتها أمامهم ، فأقبلوا يشمونها ويفحصون أمرها ، وكانت فيما يبدو أول سحلية يعاينونها في حياتهم . وأعجبتهم الوليمة فبدأوا يمزقونها ويأكلون ، والأم الحنون واقفة تتفرج ولا يخطر على بالها أن تمد يدها لتصيب فتفوتة واحدة . فهي صورة مؤثرة حقاً للحنان الذي تتميز به موني بالرغم من سفالاتها الأخرى العديدة .

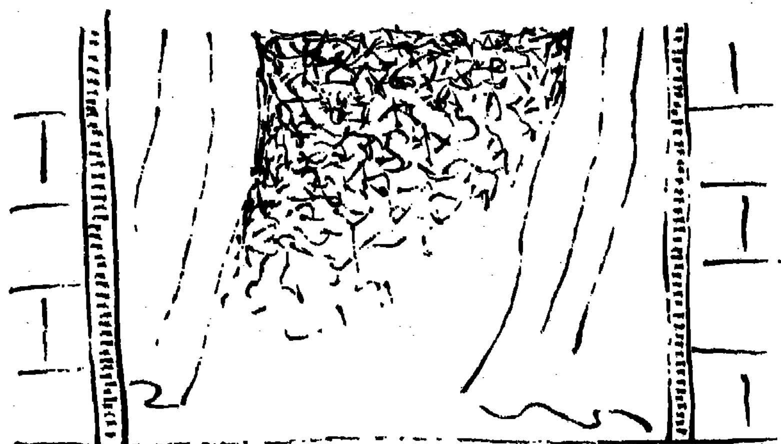
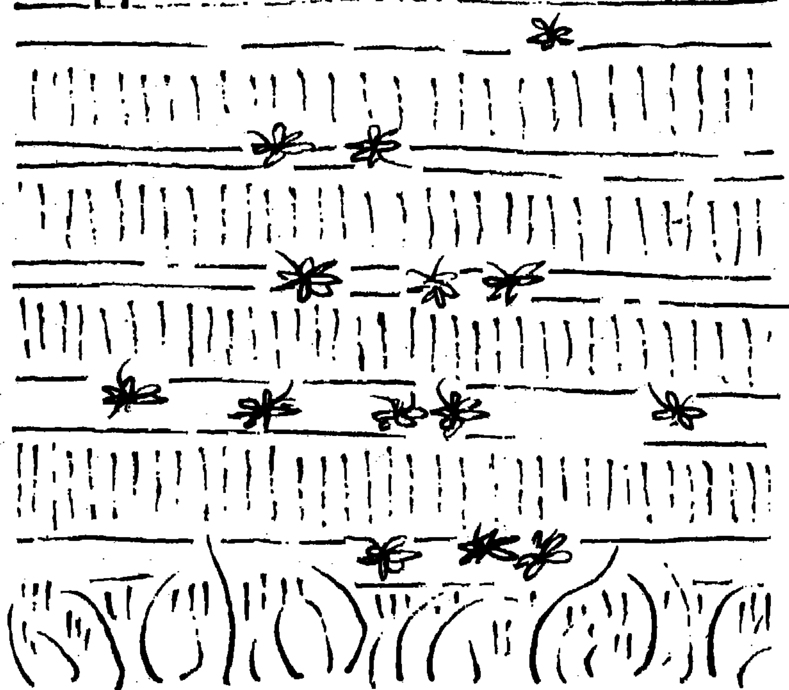
وما كان لي بالطبع أن أنسى الأم الحنون الأخرى وهي السحلية ، التي لا أشك من أنها ما غادرت العش بدورها إلاّ لتلتمس شيئاً من الغذاء لعيالها الحلوين . أم حنون وجدت نفسها في لحظة من سوء الحظ بين أنياب أم حنون أخرى أكبر حجماً ، والأمر كله يستوي ما دام يجري في حجر الأم الحنون الكبرى ، أمهن الأرض .

ومددت يدي نحو موني أتحسس بطنها البيضاء وأقول مداعباً .

– أوعي يا بت تكوني حبلتي على كبر !

فصوبت إلي نظرة استنكار تقول :

– بلا نيلة ! أنا قادرة آكل عشان أحبل ؟ !

الفصل السادس عشر

« أيام نظيفة وعصيبة – عن الهباب والياسمين – ياسمين في الزبالة – لغز السم المعطر – البلهاء العزيزة » .

الياسمين على البساط

لأنها طويلة ورشيقة فقد كان يجب أن تكون أكثرهن عذاباً أمام تلك الرياح الوضيعة المسماة بالخماسين . فتلك الرياح وإن عصفت بزهيرة وتمارا فهو عصف محتمل لا يسقط منهما إلاّ بعض الأوراق ، وأما عصفها الشديد فعند قمم الأشجار المرتفعة ، تلعب بها بقسوة وتدفعها يميناً ويساراً ، فيبدو للإنسان من شدة ميلها أن جذعها قد ينكسر في أية لحظة من هذا العبث الربيعي . فإذا كان الشتاء يقسو على الناس في الخارج فهو يعوض ذلك بأنه يقسو علينا في الربيع ويوشك أن يحرمنا منه . فإذا تغنى شعراؤنا هنا بنسمات الربيع الحنون فهم لا يزيدون عن كونهم ببغاوات تردد ما يقوله الشعراء الذين عندهم ربيع حقاً ، ويتعامون عن تلك الرياح المتربة التي تكسو الأشياء باللون الأصفر الكئيب وتزيد العيون عماء على عمائها .

فتحت باب الشرفة فقابلتني دفعة ريح قوية مائلة إلى السخونة إلا أنها تستحق أن أجربها . وفي الداخل جلست على الفوتي اللبني الذي كان أزرق ، ناظراً إلى أرض الشرفة التي أغرقتها الرياح بزهور الياسمين الساقطة . ودفعة أخرى قوية من الريح نفخت كمية من تلك الزهور إلى داخل الحجرة لتزين البساط النبيتي العتيق بالدوائر البيضاء المعطرة ، وصوت خبط ورزع أسمعه من بعيد على النوافذ وقطع الأثاث ، إذ أخلدت

أمينة إلى الراحة أسبوعاً كاملاً فكان يجب أن تعوض بيوم من النظافة الحادة ، وبمنفضتها الكبيرة المفزعة راحت تضرب كل ما يقابلها من الأشياء الضعيفة العاجزة كالكراسي وغيرها . وها هو صوت الخبط يقترب في الطرقة الطويلة ، وما لبثت أمينة أن ظهرت عند مدخل الصالة ، فما كادت ترى المنظر على الأرض حتى ضربت بيدها على صدرها .

– يا ندامتي ! إيه جاب الهباب ده هنا ؟ !

فقلت متهكماً :

– عشنا وشفنا الياسمين يتسمى هباب !

فتجاهلت كلمتي وقالت :

– ما أنت فاتح لي الباب على آخره !

وابتعدت مسرعة إلى الطرقة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ ، اختفت لحظة وعادت تحمل المقشة ذات اليد الخشبية الطويلة والجاروف : بالمقشة تدفع هباب الياسمين نحو الجاروف ، في نشاط غير مألوف غابت عنه كافة أعراض الروماتزم . وانتهت من تحميل الياسمين في الجاروف فاتجهت إلى باب الشرفة قائلة لي باستئذان ساخر :

– ممكن أقفله بعد أذنك ؟

وكانت قد أقفلته فعلاً وهي تبرطم قائلة :

– مش قادر يبعد عن الشجر يوم واحد !

فلم أعلق بشيء ، إذ تعلمت بالتجربة أن أتجاهل رذالاتها الصغيرة ما أمكنني في مثل هذه الأيام النظيفة . وحملت هي الجاروف واتجهت به إلى المطبخ حيث يلقي الياسمين نهايته الحزينة في صفيحة الزبالة .

فتذكرت بحثاً قرأته في إحدى المجلات ولا أعرف مدى صحته ، عن البنات اللائي يحترفن جمع محصول الياسمين في مزارعه عاماً بعد

عام ، كيف أنهن جميعاً يمتن قبل سن الثلاثين لأسباب تبدو غامضة وإن كانت غاية في الوضوح وهي علاقتهن بزهور الياسمين . ذلك أن رائحة الياسمين الزكية المسكرة ليست بريئة بقدر ما تبدو ، بل هي في الحقيقة سم قاتل لمن يدمن تعاطيه زمناً طويلاً . عاماً بعد عام يتغلغل السم المعطر في صدور البنات المسكينات ويعشش هناك ، متسرباً إلى دمائهن شيئاً فشيئاً لكي يقتلهن ذلك القتل البطيء . وفي جوف القبر العفن المظلم ، ترى كم من الزمن يتضوع عطر الياسمين من جسم البنت التي ماتت في سبيله ؟

وهبة ريح شديدة فتحت الباب الذي أقفلته أمينة ، ولوثت البساط النبيتي مرة أخرى بالزهور الضاحكة البيضاء . فتنهدت ونهضت لأجمعها ، وفي راحة يدى رفعتها إلى أنفي لكي أنهل من عطرها قبل أن أضعها في جيب الروب الرمادي . نعم هي سوف تذبل هناك وتموت ، لكن ربما كان جيبي قبراً أكرم لها بعض الشيء من صفيحة الزبالة .

وباب الشرفة أقفلته كما كان ووقفت وراء الزجاج أقول للصديقات معتذراً :

– معلش يا حلوين ، سامحوني النهاردة .

ومن وراء ظهري أتاني صوت أمينة يقول لي في دهشة :

– بتكلم مين ؟

فأجبتها في إيجاز :

– الشجر طبعاً .

وانتظرت أن تقول لي كلمتها الخالدة عن عقلي واكتماله لكنها لم تفعل ، بل قالت بنبرة بريئة إلى درجة السذاجة :

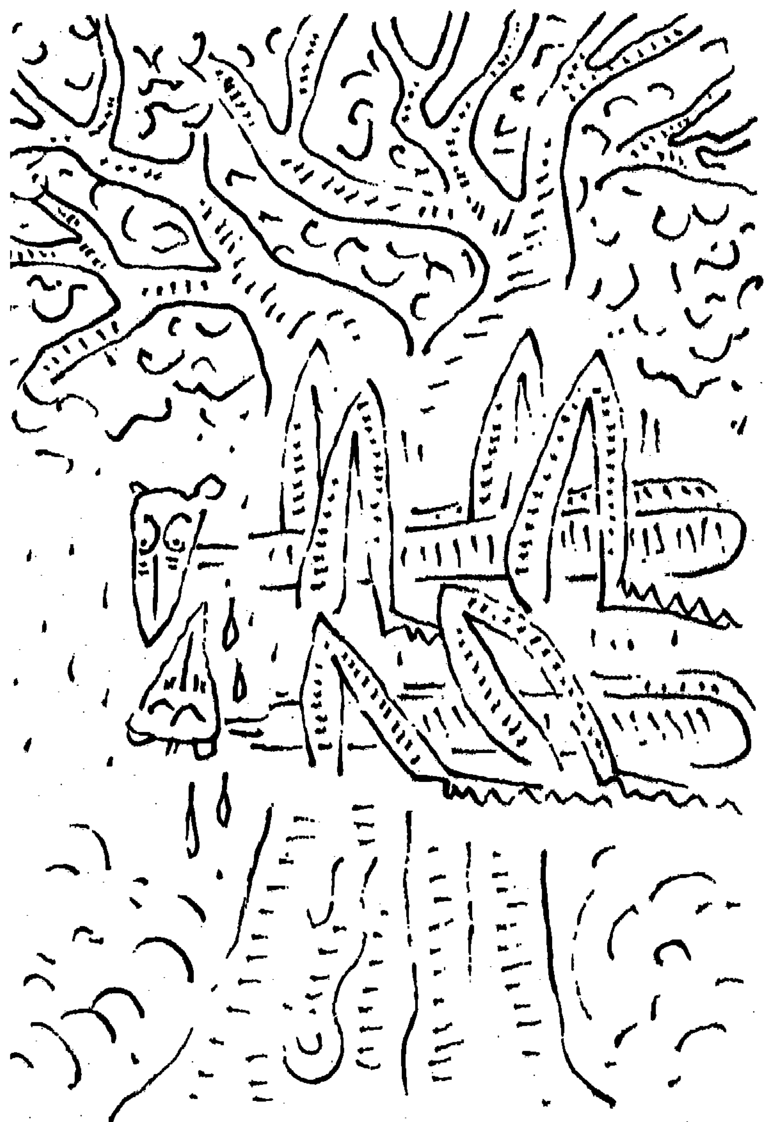
– وهو الشجر ح يسمعك والباب مقفول ؟

فوجدت نفسي بالرغم مني أهتز بضحك مكتوم ، وقصدت إليها كي أطبع على تجاعيد خدها قبلة حب .

- اشمعنى يعني ؟

هكذا سألتني في استغراب فقلت لها صادقاً !

- باحبك .



الفصل السابع عشر

« رغبة دموية – هل هي تصلي ؟ – عروس وضيعة – الحب بغير رأس – هو يحب وهي تتغذى » .

« طعام الصفوة – نظرة الموت الأخيرة – الثعبان المعتذر» .

فرس النبي

على خضرة ياسمينة القريبة رأيت شيئاً أثار في نفسي على غير مألوفي رغبة شديدة في القتل ، إذ فضحت نفسها بحركة ضغيرة تلك الكتلة الطويلة من الخضرة المتيبسة . رأسها مثلثة مثل كرسي البسكليتة ، وذراعاها مسننان مثل المناشير ، وبين حين وآخر ترفع يدها حول رأسها وتحركهما فيخيل إلى السذج أنها تصلي .

– نفسي أقوم اقتلها !

هكذا قلت لأمينة حيث جلسنا في الشرفة في صباح خفت فيه حدة الرياح :

– هي إيه ؟

– المجرمة دي .

وأشرت إلى فرس النبي فراحت أمينة تبحث عنها بعينيها وسط الخضرة حتى رأتها فقالت :

– حرام دي مبروكة !

وحيث جلست على الكرسي الأخضر الذي نقلته إلى الشرفة شرحت لي كيف أن هناك رأياً له ثقله يؤكد أن النبي عليه السلام قد امتطى واحدة من بني جنسها إلى بيت المقدس ليلة الإسراء .

– تحبي أحكي لك اللي قريته عن المبروكة دي ؟

وقبل أن تجيب بنفي أو إيجاب رحت أحكي لها كيف تتربص تلك الوضيعة الخضراء مثلما تفعل الآن في انتظار عريس الغفلة ، عالمة أنه لن يلبث أن يصل ليقع في الشرك الذي سبقه إليه الكثيرون . فإذا وصل فما هي إلا لحظات من تردد الحياء حتى يتواجد في المكان الطبيعي بالنسبة للموقف وهو فوق ظهرها ، وكل شيء حتى الآن جميل .

هذه العروس قد حباها الله بميزة نادرة في عالم الحيوان ، وهي قدرتها الفذة على أن تلوي عنقها إلى الخلف وتدير رأسها دورة كاملة ، بحيث يصبح وجهها على حد تعبير الكوميديان الشعبي محل قفاها . وعلى مهل تدير تلك الآلة الجهنمية إلى الخلف حتى يصبح وجهها مقابلاً لوجه العريس تماماً ، الأمر الذي قد يوحي إلى مراقب شاعري النزعة – مثلما أوحى فعلاً إلى أكثر من عريس – بأنها قد اشتاقت في ذروة من الانسجام إلى أن تطبع على فم العريس قبلة حارة .

لكن القبلات كما يتضح بعد قليل هي آخر ما تفكر فيه تلك الوضيعة الخضراء ، وأنما هي تتلمس بغريزتها في رقبة العريس غدة خاصة وظيفتها كبح الغريزة الجنسية في الظروف العادية ، تلك الغدة التي تحولت في ظروفنا الحالية إلى عنصر معوق يجب استئصاله . بمهارة الجراح تشق في عنق عريسها شقاً مؤدياً إلى تلك الغدة ، وتشرع في قزقزتها بأكبر قدر من الرفق كي لا تصدم مشاعر العريس النشوان .

ومن تلك الغدة تنتقل إلى رقبة العريس نفسها ، وبنفس الرفق والأناقة تشرع في قزقزتها حتى تأتي عليها ، وحتى يصبح العريس فاقداً لعضو من الأعضاء الهامة نسبياً للكائن الحي وهو الرأس !

إذ أن الجهاز العصبي في تلك الكائنات ليس جهازاً مركزياً كما هو الحال عندنا ، بل أن كل عقلة من العقل المكونة للجسم تضم مركزاً

عصبياً مستقلاً يمكنه أن يعمل لحسابه الخاص بغير اعتماد على الرأس .

ومن ثم يحدث كثيراً أن يواصل العريس وظيفته الغرامية ولمدة طويلة وهو بغير رأس . هو غرقان لشوشته في حب السيدة وهي مشغولة عن ذلك تماماً بالتهامه على مهلها ، قطعة قطعة ، أي بالاختصار أنه هو يحب وهي تتناول الغداء . فإذا ما استنفد بعد حين أغراضه كعريس طرحته عن ظهرها أرضاً وشقت بطنه باحثة عما فيها من القطع المسكرة على سبيل الحلو .

– شفتي يا ستي المبروكة بتاعتك ؟

فلم تجب أمينة من فورها ، متشاغلة باحصاء الغرز الزرقاء على إبرة التريكو وقد تقاربت عيناها فوق أنفها فبدت شبه حولاء . وأخيراً قالت متسائلة :

– جبت الكلام ده منين ؟

– من الكتب :

فقالت في إيجاز حاسم ؟

– ما تصدقش كل حاجة تقرأها في الكتب !

وأضافت قبل أن أعترض ؟

– وسيبني وحياتك أعد الغرز !

وواصلت عملية الإحصاء ، وواصلت أنا تأمل تلك الكتلة الشريرة الخضراء وألوك أفكاري الدموية .

وخرفشة تحت السور النباتي وجسم قفز هناك مرتين ، ومن موضعي في الشرفة لم يكن في وسعي أن أرى عيني ضفدوع . لكنني سمعت صوته يقول :

– آووو !

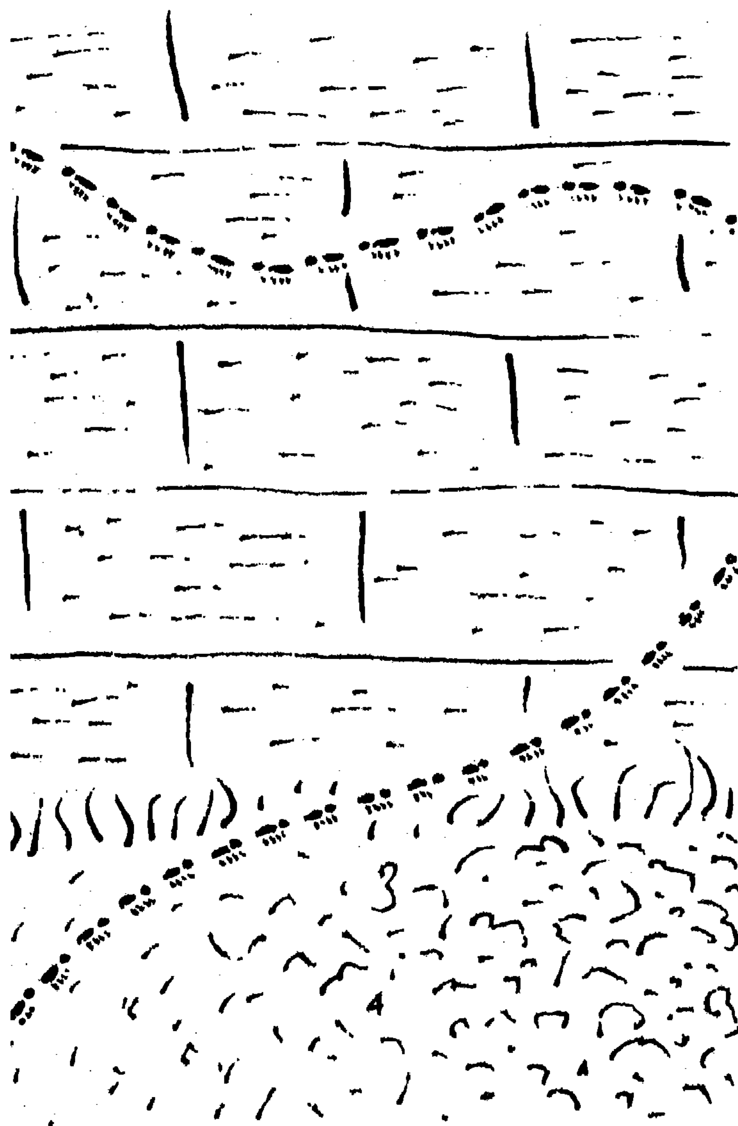
وكان في صوته نوع من التساؤل لأنه هو الآخر لا يمكن أن يراني من هناك ، وقفزة ثالثة أخفته عني في الشونة . وقفز ذهني إلى يوم كنت في حديقة الحيوان ووجدتني أمام بيت زجاجي كبير يقيم فيه ثعبان من نوع العمالقة ، في ركن من البيت رقد الثعبان ملفوفاً على نفسه كأنه حبل من حبال البحارة كوموه على رصيف الميناء ليسحبوا به عند الطلب إحدى السفن ، غارقاً في النوم وفي عينيه السوداوين المفتوحتين براءة طفل رضيع . أكل فشبع فنام ، فإذا صحا جائعاً فما عليه إلا أن يمد رأسه إلى بركة ماء قريبة منه في نفس القفص ،، وفيها تعيش قبيلة من الضفادع مختلفة الأحجام ، تأكل ما تجد في الماء الراكد وهي في حال غريبة من الطمأنينة واللامبالاة بالخطر الجاثم بجانبها طول الوقت . ويصحو الثعبان فيمد رأسه نحوها ليتفحصها متخيراً منها ما يصلح لوجبته .

مدى لحظة تلتقي عيناه السوداوان في أغرب نظرة بعينين جاحظتين لضفدعة ، يتبادلها كائنان قبل أن يأكل أحدهما الآخر . في عين الثعبان بحثت عن الكراهية فلم أجدها ، ولا وجدت أي شعور بالإثم . وفي عين الضفدعة لم أجد الخوف ولا حتى مجرد العتاب . فبينما أنا أنظر في عيني الثعبان خيل إلي أنني سمعته يقول للضفدعة :

– أنا شديد الأسف يا أختاه على ما سوف يصدر مني حالاً ، لكنك تعرفين أن هذا هو ناموس الحياة . لكي أعيش أنا يجب أن تموتي أنت ، ويا ليتهم وضعوا لي بدلاً منك فأراً سميناً أو خنزيراً صغيراً مشبعاً . أما وليس أمامي سواك فلا مناص لي من أن آكلك ، وما أحسبك ترضين لي بتلك الفضيحة بين أقراني ، أن أكون أول ثعبان في التاريخ يموت بسبب إضرابه عن الطعام لاعتبارات أخلاقية .

وكنت أحب أن أسمع بماذا ترد الضفدعة على هذا الكلام ، لكن الوغد لم يمهلها .

وسوف تظل الحدائق خير مكان يقضي فيه الرجل العاقل وقته طالما كان فيها إلى جانب الشجر والزهر والعصافير والقطط – ضفادع ذات عيون جاحظة – متسائلة ، حقيقة لا تغير منها تلك الخلفية البعيدة من الأنين الأبدي في الأسطوانة التي علقت على كلمة آه .



الفصـل الثامن عشر

« الطابور الأبدي – قاتل النملة في جهنم – الجملة والقطاعي في قتل النمل – حاسب النمل يا جمعة » .

النمل وأمي وجمعة

طبعاً دست عليه أكثر من مرة دون أن أنتبه ، طابور النمل الشغال طول الوقت عند سلم الشرفة ، وكان انتباهي على إحساس بالفركشة العامة تحت قدمي ، فأنظر لأرى عشرات من النمل تهرول هنا وهناك في حال من الفوضى الطارئة ، غير النمل الذي يتلوى على الأرض وقد تحطم تحت ثقل قدمي الغليظة ، لكن الطابور في عمومه يظل سائراً كأن شيئاً لم يكن ، يمر بالنمل المتلوي فلا ينظر إليه أصلاً ، أو ينظر إليه ولا يراه ، أو يراه فلا يبدي أي نوع من الاكتراث بالأمر . فالمسألة عنده حادثة يومية لا طلعت ولا نزلت ، وواحدة من المخاطر المألوفة في مهنة النمل .

وذات يوم وأنا طفل كنت أرى النملة سائرة فأضربها بقدمي وأقتلها عامداً متعمداً ، شاعراً بأنني أمارس حقاً وأؤدي واجباً وأنا أقتل هذا الكائن المهين الذي يعترض بهذه الجرأة طريق كائن عظيم مثلي .

ورأتني أمي أفعل ذلك فوبختني أشد التوبيخ ، وحدثتني بما ينتظر القساة أمثالي من البهدلة يوم القيامة ، ومن عذاب الحريق بعد ذلك في جهنم خالدين فيها أبداً . فملأني هذا الحديث رعباً وأقلعت تماماً عن قتل النمل ، بل وصرت أمشي مطأطئ الرأس نحو مواقع قدمي مخافة أن أقتل ، حيث لا أدري نملة مسكينة شاردة .

وذات يوم رأيت أمي تحمل زجاجة كبيرة تفوح منها رائحة الجاز ، وتتجه بها نحو ركن في المطبخ حيث جلست القرفصاء لكي تفرغ محتوياتها في أحد الحجور هناك .

– بتعملي إيه يا نينة ؟

هكذا سألتها في براءة فلم تجبني ، إذ كانت كما تبينت بعد ذلك تصب الجاز في أحد أوكار النمل بقصد إبادته وتطهير المطبخ منه . فعجبت أشد العجب من هذا التناقض الصارخ أمامي ، إذ تستبيح أمي لنفسها قتل آلاف النمل بضربة واحدة ساحقة ، في حين تحاسبني أنا على استمتاعي البريء بين حين وآخر بقتل نملة واحدة يتيمة فهل هي لا تكترث بما ينتظرها يوم القيامة من عذاب أليم ، أم تراها تعرف – دون أن تقول لي – أن قتل النمل بالجملة حلال في حين أن قتله بالقطاعي هو وحده الحرام ؟ أم أن المسألة أخطر من ذلك ، وأن الله جل جلاله يكيل للناس بكيلين ، فيبيح للأمهات الكبيرات القويات من الجرائم ما يحرمه على أطفالهن الصغار الغلابة المستضعفين ؟

وأسئلة كثيرة من هذا النوع شرعت في توجيهها إلى أمي التي استمعت اليها حينا في صمت لتستوعبها ، فلما تم لها الاستيعاب قالت في إيجاز صارم :

– اجري العب برة !

وصوت لتدفق المياه من الخرطوم على أرض الحديقة خلف البيت ، ثم ظهر جمعة بعد حين وهو يسحب الخرطوم على الأرض ويصوبه هنا وهناك لزوم الري . حتى أرض الممشى الرملية يجب أن يرشها لكي يثبت الرمال على الأرض ، وها هو قد أصبح على بعد متر واحد لا غير من طابور النمل .

- حاسب النمل يا جمعة !

هكذا هممت بأن أصرخ فيه لولا أن أمسكت لساني في آخر لحظة ، إذ أن كلمة كهذه كفيلة أن تثير عند جمعة دهشة بالغة قد تبلغ حد الشك في قواي العقلية ، ولربما صرت أضحوكة في الحتة لزمن طويل . والنمل مهما طلع أو نزل لا هو من الثدييات ولا من الطيور أو غيرها من الفقاريات التي أمت اليها بصلة القربى ، فلماذا أجعل نفسي هزؤاً في سبيل كائن لا تربطني به أي علاقة بيولوجية مباشرة ؟

فاكتفيت بأن أدرت وجهي عندما وصل بالخرطوم إلى طابور النمل ، متخيلاً المئات منه وهي تنفعص على الأرض أو تطير في الهواء أمام سيل المياه الجارف . ونظرت إلى وجه جمعة فوجدته باسماً سعيداً يحرك الخرطوم يميناً ويساراً وكأنه مدفع رشاش يصوبه إلى طابور المخالفين له في الرأي . وما لم يقتله بالماء قتله بقدميه الحافيتين الغليظتين وبالخرطوم الذي يسحبه وراءه في رحلة الري المدمرة .

فتنهدت في استسلام وسكت ، وماذا كان في إمكاني أن أفعل ؟ هل نترك الحديقة تموت من العطش فداء للنمل وسائر الدواب الصغيرة التي تغرقها مياه الري ؟ وكان مما هون علي الأمر أن أياً من سكان الحديقة لم يبد أي نوع من الاكتراث بما حدث ، ما من غصن تحرك في تمارا أو ليمونة سقطت من زهيرة ، ولا البسمة فارقت وجه القرد الضاحك في حوض البانسيه ، فلماذا أنفرد أنا بحمل كافة التبعات على كتفي ؟

وابتعد جمعة بالخرطوم فابتعد معه صوت الماء ، ومن آخر الشونة ترامى إليَّ صوت بكاء الطفل الجديد الذي كان مستكناً في جوف أمه ، والذي نزل ليتربى بدلاً من شحاتة في عز جمعة . وكان بكاؤه حتى هذه

اللحظة ما يزال بكاء ، لم يتحول بعد إلى تلك الإسطوانة المعلقة على كلمة آه .



الفصل التاسع عشر

« لا تخرج ، يعني أخرج – كيف تعرف أن هذا الكائن ميت ؟ – عندما شعرت أنني أكره أمينة – بندقية ماركة صوت سيده » .

موت فيدو

قالت لي أمينة وقد رأتني أنزل السلالم الأربع إلى الحديقة :

– أحسن لك ما تطلعش برة ع الرصيف ! خلي تمشيتك النهاردة جوة !

فأدهشني قولها طبعاً .

– ليه ، فيه إيه ع الرصيف ؟

– أنا عملت اللي علي وقلت لك !

وأسرعت بالاختفاء من باب الشرفة قبل أن أواصل التحقيق معها . وكان واضحاً أن هذه دعوة صريحة لي كي أخرج إلى الرصيف ، وما كانت لتقول لي ذلك لولا خوفها من أن أكتفي بالتمشية في الحديقة ولم أر أول الأمر أي شيء غير عادي ، فالرصيف هو الرصيف من نفس الشارع الصغير الهادىء . ثم اتجه بصري يساراً نحو باب الشونة المحاذي لباب الحديقة على بعد أمتار ، فرأيت تلك الكتلة البنية المكومة هناك على الأرض . نحوها خطوت لكي أتبين فيها جسم صوت سيده ، وكان ساكناً أكثر مما يناسب كلبا نائماً ، أعضاؤه المبعثرة حوله بلا نظام لا يمكن أن تنتمي إلى غير كلب ميت . نعم كان فيدو ميتاً ، وفي جنبه ثقب واضح للطلق الناري الذي أرداه ، ودم متكلس حول الجرح تجمع عليه الذباب .

صورة للسكون الذي هو سكون ، والذي لا يدرك الإنسان معناه

إلا وهو ينظر إلى كائن ميت . اللانبـض واللاحركة واللا وجـود بأي شكل من الأشكال ، الكائن وقد تحول فجأة من حياة الخلايا النابضة إلى حياة الذرات الغامضة الخرساء ، سيان عنده الآن أن أسكب عليه الجاز وأشعل فيه النار ، أو أحضر ساطور المطبخ وأقسمه إلى شطائر صغيرة لزوم قطط الحتة ، لأنه ليس هنا أصلاً . لم يعد فيدو أكثر من صيغة نفي لكلب كان .

فالحمد لله أنني سمحت له في ذلك اليوم بأن يتشمس عندي ، كي لا يموت المسكين وفي نفسه شيء مني . وهو يعلم أنني كنت راغباً حقاً في أن أطعمه لولا رحلة المطبخ التي وصفتها له . وهكذا منحته في ذلك الصباح بعض ما يفتقده من الحب وأشعرته بأنه ليس نجساً بالقدر الذي يتهمونه به .

– شايف التجرمة يا بيه ؟

صوت جمعة الذي وصل من خلفي ، وفي وجهه حزن أكبر من الذي رأيته فيه يوم مات طفله شحاتة .

فقلت له في غيظ صادق :

– ابن كلب مين اللي يقتل كلب غلبان زي ده ؟

– الحرامية يا بيه بقوا بعيد عنك زي الواغش في الحتة . ربنا يسوقك يا عبد الله .

– عبد الله مين ؟

– الزبال عشان ياخده في العربية .

وحرك ذيل جلبابه فأطار الذباب المتجمع على الجرح حولنا ، وبصعوبة منعت نفسي من أن أقول له : تعيش أنت يا جمعة ! وفي الداخل قابلتني أمينة قائلة بلهجة لا تخلو من شبهة شماتة .

– قلت لك بلاش تخرج برة !

فقلت لها في غيظ :

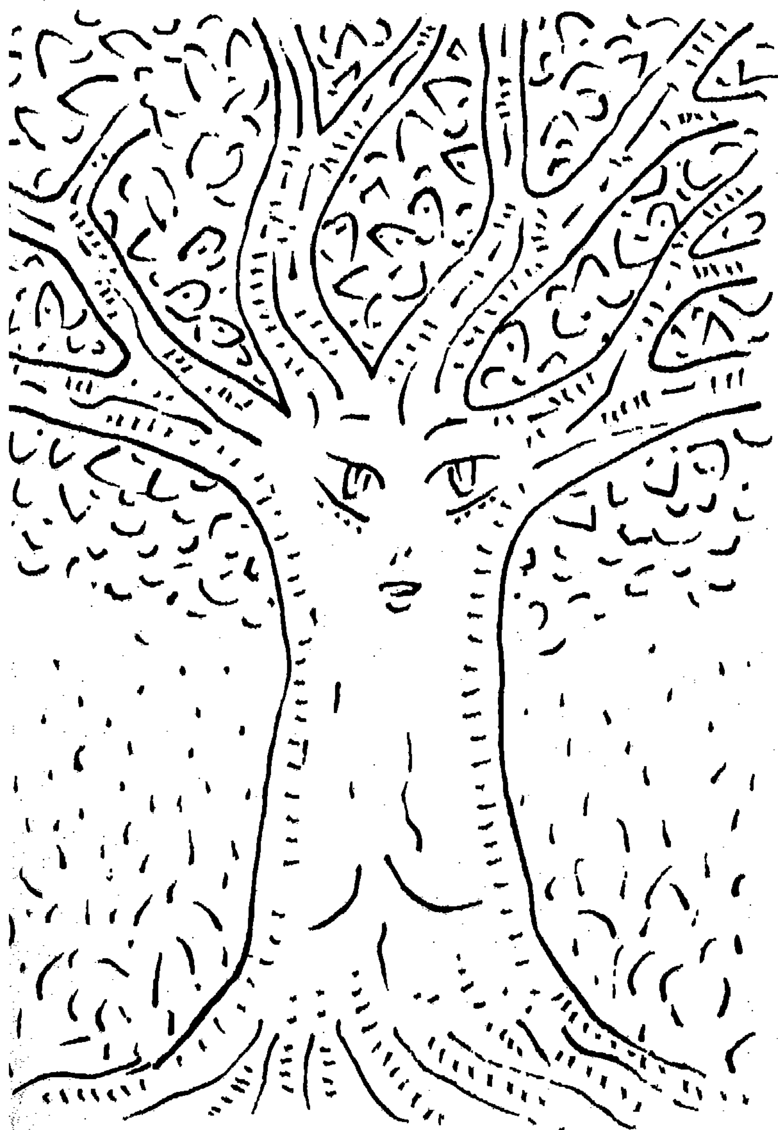
تكلك مبسوطة شوية !

– ح انبسط ليه بقى ؟

– كلب نجس وخلصتي منه !

– ولما أنت عارف كده زعلان ليه ؟

وكانت هذه واحدة من الحالات التي أبذل فيها جهداً كبيراً كي لا أكره أمينة . وفي تلك الليلة سمعت ما بين النوم واليقظة صوت طلق ناري ينبعث من داخل الشونة ، وخيل إليّ أن البندقية التي أطلقت كانت مبحوحة الصوت نوعاً .



الفَصْــل العِشْــرُون

« محاولة لتعريف الشجرة – اختفاء أكاليفا – هأو هع أو » .

من هي الشجرة ؟

نعم أنا أحب أن أكلم الأشجار بين حين وآخر ، بل أستطيع أن أقول أنني أفخر بذلك ، ويدهشني أمر أولئك الشواذ الذين ينكرون عليّ هذه الهواية الخلاقة الجميلة . شيء واحد يزعجني في ممارستي لهوايتي ، هو ذلك الصوت الذي لا يبرح يلح عليّ طول الوقت بقوله :

– أين هي ، ومن هي ، تلك الشجرة التي تكلمها يا سيد !

إذ أنني أكلم الشجرة فأوجه بصري إلى كتلتها الكبيرة الخضراء المكونة من أوراقها ، ومن ثم يعيد السائل صياغة سؤاله :

– هل تعتقد يا حضرة أن الشجرة هي أوراقها ؟

فأجيب بالنفى طبعاً ، لأنني واثق من أن الشجرة ليست – كما خيل إليّ فعلاً لفترة ما – أوراقها . لأن الأوراق تشيخ وتصفر وتذبل ، وتسقط على الأرض لكي تدوسها الأقدام بطقطقة محزنة . والشجرة نفسها ما زالت قائمة في مكانها بجذعها وأغصانها ، عارية عن أوراقها حقاً لكنها ليست شديدة الاهتمام بهذا العري .

فيعود سائلي يقول بنبرة ساخرة مستترة :

– هل هي إذن جذعها وأغصانها ؟

فأتجاهل سخريته وأجيب بالنفي ثانياً ، إذ أعلم أن هذه الأشياء لا تزيد عن كونها الهيكل الخشبي المقابل للهيكل العظمي عندنا ،

وطاقم المواسير الذي ينقل الغذاء إلى الشجرة الحقيقية المجهولة .
- ما رأيك إذن (يواصل سائلي سخريته) في أن الشجرة هي زهرها وثمارها ؟

فتغريني الفكرة بأن أجيب بالموافقة ، لكنني مرة أخرى أجيب بالنفي فهل أنا قد أكلت زهيرة عندما ملأت بطني من عصير بتزهيرها ؟ وهل سلبت تمارا شيئاً عندما ملأت صدري من عبيرها المسكر ساعة الغروب ؟

- لم يبق إذن إلا أن تكون الشجرة هي جذورها ، فما رأيك ؟

لكنني أعلم طبعاً أن الجذور ما هي إلا مخالب لتثبت الشجرة في الأرض ، ومصاصات لما يزخر به جوف التربة من عصائر الغذاء . وهنا يصل الصوت السائل إلى ذروة سخريته فيقول لي متخلعاً :

- إذن فأنت يا سيدي تكلم الأشجار بدون أن تعرف من هي الشجرة !

فاغتظت مرة وقلت له :

- هل أفهم من هذه الأسئلة المتعالية أن سيادتك تعرف من هي الشجرة ؟

فتريث لحظة في الإجابة ثم قال بضحكة سوقية صغيرة :

- ها أو أو هع أو :

أو لعله قال :

- ها أو أو هع هع .

ولأنني لا أظن أن هناك فرقاً هاماً بين القولين فقد نسيت الأمر كله . وذات يوم قادتني قدماي وأنا أتمشى إلى حيث تقوم أكاليفا ، عسى أن تكون قد وجدت طريقة تفصح بها عما تريد أن تقول . وهناك كانت المفاجأة الكبرى في انتظاري ، وهي أن أكاليفا ليست موجودة هناك أصلاً ! كأنما انشقت الأرض وابتلعتها فلم تترك منها إلا عصا خشبية

جافة مرشوقة في الأرض بارتفاع ركبتي . وغير بعيد رأيت كوماً كبيراً من الألوان الفاقعة التي تؤلف أوراق ليفا ، مقطوعة مع الأغصان التي تحملها ومع أكثر من نصف جذعها ، وملقاة في الركن تنتظر عربة عم عبد الله .

مدى لحظة ظننت أن جمعة قد أصابته لوثة مفاجئة فقطع الشجرة ، فناديته من خلال السور النباتي حتى رد عليّ فقلت أسأله !

– أنت اللي قطعت ليفا يا جمعة ؟

ولم يكن يعرف اسم الشجرة فقال !

– ليفة إيه يا بيه ؟

فقلت مصححاً :

– قصدي الشجرة أكاليفا ، أنت اللي قطعتها كده ؟

فقال متضاحكاً من جهلي :

– أنا ما قطعتهاش يا بيه ، أنا قرطتها ! عشان تكبر وتفرع وتبقى حلوة .

فقلت في غيظ :

– ما هي كت مفرعة وحلوة .

– لا يا بيه ، دي تفرع أد كده خمس ست مرات . اصبر عليها حبة يا بيه ، دى ح تبقى شربات خالص !

فقلت مازحاً :

– أنا افتكرتها زعلت الحاج ف حاجة قال لك اقطعها !

فقال في بلاهة !

– الحاج ؟ !

– آه ، يمكن جه يدخل بالمقطورة وقفت في سكته !

فلم يجب جمعة وقد استعصى عليه الفهم ، لكنه كان قد أثبت

بالدليل العملي الحاسم أنني أستطيع أن أقطع جميع أغصان الشجرة بجميع أوراقها ومعظم جذعها ، وبالرغم من ذلك لا أكون قد قطعت الشجرة !

لم تمت ليفا كما خيل لي ، أو لعلها ماتت وبعثت من جديد . من جوف الخشب الأصم في العود الجاف بدأت تنبثق الأوراق الخضراء من جديد ، صغيرة أول الأمر لكنها صارخة بنشيد الحياة . فهناك شيء في جوف الشجرة قد أقسم – مهما مزقت أوصال الشجرة – يميناً مغلظاً على البقاء . شيء لا أظن أنني سأنجح في معرفته أبداً ، لا أنا ولا ذلك الوغد الذي يسخر مني بأسئلته السخيفة .

فقلت لتمارا وأنا أربت على جذعها :

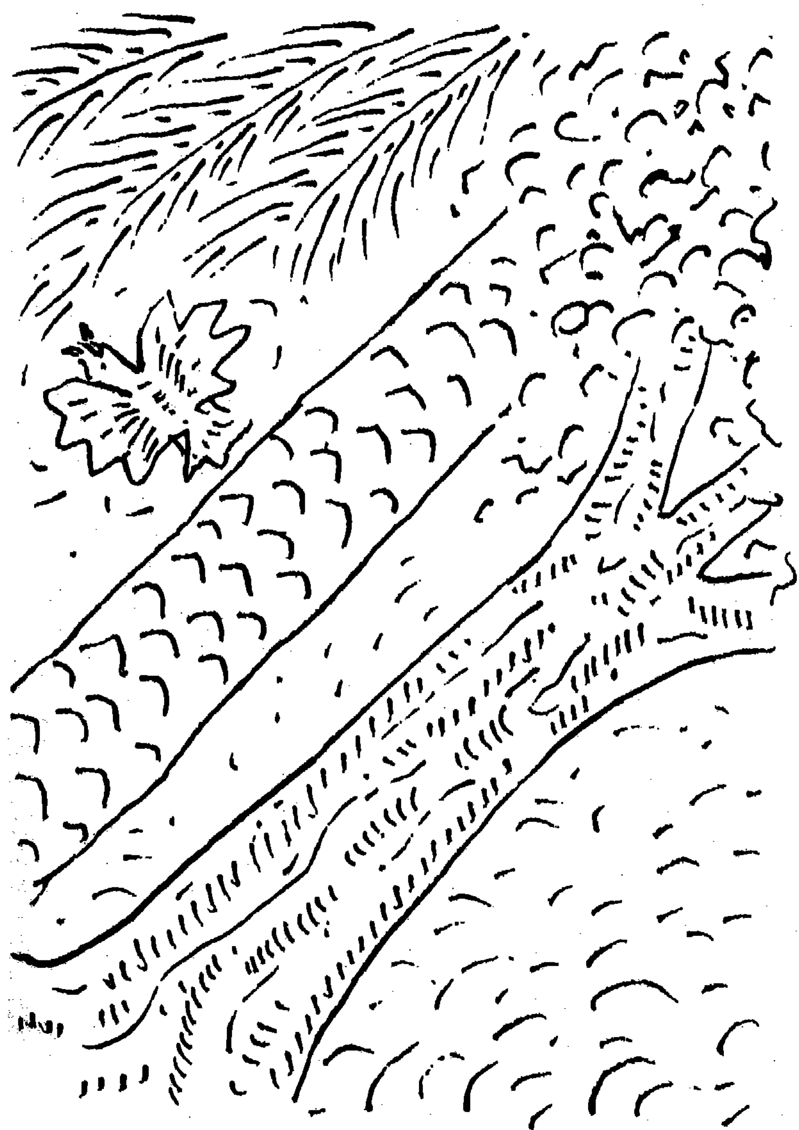
– يعني يجرى حاجة يا تمتم لو تقولي لي أنتي مين ؟

فما من عود تحرك فيها ولا ورقة ، فاستدرت إلى زهيرة بأمل ضعيف :

– ولا أنتي يا زوزو ؟

فكأنني بالنسبة لها ما قلت شيئاً ، ومن بحر الألوان في حوض البانسيه اندفع جسم صغير أبيض للفراشة اللطيفة البيضاء . ومع رفيف أجنحتها المبتعدة خيل إليّ أنني أسمع صدى صوت يقول :

– ها أو هع هع أو .



الفصل الحادي والعشرون

« نفحة مباشرة من روائح الجنة – دعوة ولية ساعة مغربية – هل أكلت نحلة عاشقة ؟ وليمة متعددة الألوان – إنذار نهائي – يوم السقوط العظيم » .

السقوط العظيم

هذا الوقت قبيل الغروب هو المفضل عند تمارا لكي تكشف عن كنوزها الكامنة ، وتنشر على العالم أزكى ما عندها من نفائس العطر . ولعطر تمارا في الأنف لذعة مثل لذعة العسل في الفم ، فإذا الحديقة كلها بحيرة عسل ومسك . حتى موني جذبتها الرائحة فأقبلت وجلست تحت الشجرة تتشمم الهواء ، منصتة إلى ما تبقى في الدنيا من زقزقة خافتة للعصافير .

في فستانها الرمادي خرجت أمينة إلى الشرفة ، سائرة على مهل بالسبحة الطويلة ذات الحبات الصغيرة السوداء . ومثلما فعلت القطة فعلت أمينة ، مدت أنفها لتملأ صدرها بالعطر الزكي الحراق وارتسمت على شفتيها ابتسامة راضية ، إذ كانت أمينة واثقة من أن رائحة تمرحنة بالذات ما هي الا نفحة مباشرة من نفحات الجنة .

على النجيلة سارت حتى وصلت إلى الكرسي الأخضر فجلست عليه تواصل التمتمة بالأدعية والصلوات . وفي الفضاء الشاحب فوقنا ترددت أغنية الكروان الحزينة ، تذبذبت أنفاسها حيناً قبل أن تذوب في قمم الأشجار العالية .

صوت عصفور حط على غصن من أغصان زهيرة ، بل هما في الحقيقة عصفوران . حوار ساخن بينهما ومشاحنة لا تليق بهذه اللحظة

الهادئة الفواحة بعطر الجنة . فارتعدت شفتا موني مع شاربها كالمعتاد في مثل هذا الظرف ، وتوتر جسمها كلها في حالة من التأهب الوحشي الصامت . فهذه نغمة من نغمات العصافير تعلمت القطط أن تحبها منذ فجر التاريخ ، اللحظة المبشرة بسقوط أحد المتصارعين صريعاً . وذات يوم سمعت موني هذه النغمة وهي في شبابها ، وكانت تجلس هنا كما تجلس الآن ، فإذا بها تتحول فجأة من قطة إلى سهم مارق ، تتسلق جذع الشجرة وتتغلغل بين أغصانها ، وفي لحظة تعود بأحد العصفورين وقد أخرجته من عز المعركة ونزلت به لتأكله . كان ذلك زمان طبعاً ، أما اليوم فليس عندها سوى أن ترعش شاربها وتموء في مرارة .

وبقع من الألوان تتراقص في السماء ، وزقزقة هامسة لطيفة تنبعث منها . سرب من اليمام وليس بيمام ، يظهر دائماً في الصيف في هذا الوقت قبيل الغروب . تتقلب الطيور إذ تطير مثل الطائرات في يوم استعراض ، ومع تقلبها يتحول لونها من الأبيض إلى البرتقالي إلى الأخضر . سألت جمعة يوماً عن اسم لهذا الطائر فقال في بساطة :

– ده الوروار يا بيه .

فسألته بريبة !

– يعني إيه وروار ؟

– عشان بيورور يا بيه ، موش سامعه سيادتك ؟

كنت أظنه يزقزق ، فإذا به في حقيقة الأمر يورور . وفي موسوعة مبسطة عن الطيور عثرت فعلاً على طائر باسم الوروار يحمل صفات هذا الطائر ، ويسمى أحياناً باسم آخر هو آكل النحل . فهو لم يطر إلى تلك الأعالي كما خيل إليّ من قبل لكي يمارس الحب أو العبادة ،

بل لكي يظفر بوجبة خفيفة قبل أن ينام . فهو يعرف أن النحل قد سبقه إلى تلك الأعالي لكي يتزاوج بعيداً عن تطفل الكائنات الأرضية ، وهناك في الأعالي الصامتة يستمتع الوروار الجائع وهو يتقلب بالتهام كل ما يصادفه من النحل الولهان .

ولقد سمعت الكثير عن دعوة الولية في ساعة المغربية ، لكن هذه هي أول مرة أراها تستجاب أمامي بهذه السرعة . في آخر الحديقة سمعت صوتاً مكتوماً يرتطم بالأرض ، وهناك رأيت جسماً صغيراً يقفز ليطير فيسقط ، ويقفز ثانياً فيسقط ، ولونه يتغير مع كل قفزة من الأبيض إلى الأخضر إلى البرتقالي . وفي لحظة واحدة لم أجد موني بجانبي ، وكانت أشبه بحوت غطس في البحر بجانبي وقب هناك عند الوروار الساقط . وفي اللحظة التالية كانت كل تلك التشكيلة من الألوان كتلة واحدة بين أنيابها ، وكالسهم المارق انطلقت به في مجاهل الحديقة وراء البيت . بدون أن أراها تخيلت أنيابها وهي تعمل بالنتف في الريش الأخضر والبرتقالي ، ثم وهي تغوص في اللحم الطري الساخن الساقط لفوره من السماء وفي جوفه ثروة إضافية من النحل الطازج . وريش كثير ملون سوف أجده صباح الغد على أرض الحديقة ، وربما منقار وساقان ، بغير الوروار الذي تنتمي اليه كل تلك الأشياء . إلى الأعالي الصامتة طار الوروار لكي يظفر بأكلة نحل طازج ، وإلى الأرض سقط لكي تظفر موني بأكلة وروار طازج . لا لوم على موني فهي قطة ، وما هي إلا ولية طلبت من السماء عصفوراً يزقزق فأهدتها ووروارا يورور . وغير متوقع منها قبل أن تأكل الطائر أن تذبحه وتصفي دمه ، تلك الإجراءات الخاصة بالمتحضرين أمثالي .

في المسجد القريب دوى الميكروفون بأذان المغرب ، فنهضت أمينة

لتلبي النداء . لكنها توقفت حين سمعت صوت جمعة المبحوح من خلال السور .

— مساء الخير يا بيه ، أنا عندي خبر ح يزعل سيادتك ، بس أنا عبد المأمور .

فلعب الفأر في عبي ، إزاء هذا الصوت المنذر الذي لم أعهده من جمعة .

— بشرفي يا بيه أنا كان ح ينقطع عيشي امبارح . الحاج جه زي النوبة اللي فاتت وبرضك حب يدخل بالمقطورة ما عرفش ..

وتريث فقلت في صبر نافذ :

— اتكلم وخلصني .

فقال جمعة في إيجاز حاسم ؟

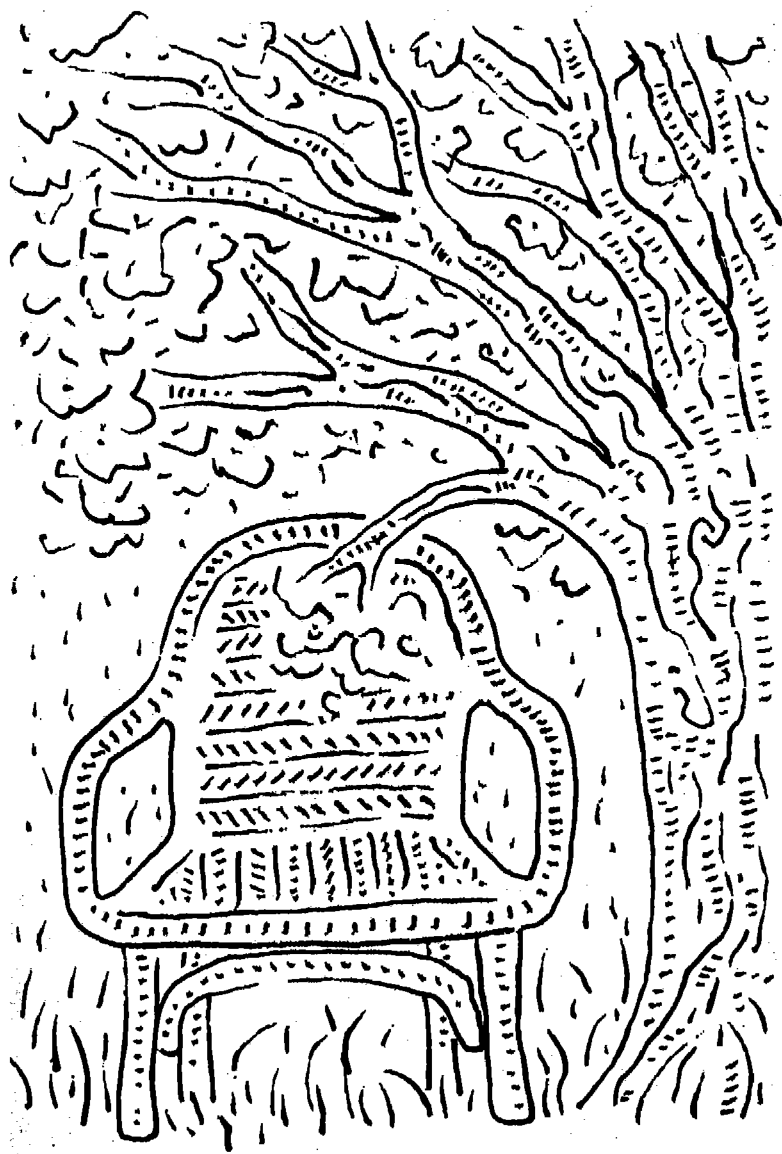
— الشجرة ح تنقطع بكرة يا بيه . أنا بس جيت إدي سيادتك فكرة ، وأنا عبد المأمور .

نظرت إلى أمينة فوجدتها قد ركزت بصرها عليَّ لتعرف كيف سأبدو وقد سمعت ما سمعت ، ولا بد أنها رأت منظراً محزناً حقاً ، وإن كان مكتوباً له أن يتحول في لحظة واحدة إلى منظر مضحك ، إذ ضربت بقدمي على الأرض بقوة واضطجعت إلى الوراء على الكرسي ، فإذا بي أميل فجأة إلى الخلف وأشرع في رحلة جديدة نحو أرض الوطن ، جالساً كما أنا على الكرسي القش العتيق الأصفر . بسرعة تقدمت من الأرض الطيبة حتى ارتطمت بها ، بعد محاولة فاشلة لاصطياد جذع تمارا كما فعلت في المرة السابقة .

كنت دائماً إذا وقعت أحب أن أنهض بسرعة ، لكن يبدو أن الدنيا قد تغيرت ، إذ أردت أن أحرك ساقي لكي أعتدل بالكرسي فتعذر

ذلك عليّ تماماً ، لا الساق اليمنى طاوعتني ولا اليسرى . فرفعت نفسي بالعافية حتى اعتمدت بمرفقـي على الأرض ، ورأيت أمينة تضع سبحتها السوداء على الكرسي الأخضر وتأتي مسرعة لكي تنقذني . فانحنت لكي تمسكني من الأبطين وتعينني على النهوض ، وبقوة جذبتني إلى أعـلى وبسرعة ، فما كادت تفعل حتى تراخت قبضتاها عني وتركتني أسقط من جديد . ويداها رفعتهما لكي تضغط بهما على جانبي رأسها ، مترنحة تتأوه بصوت مكتوم . خلفها مدت يدها تتلمس الكرسي الأخضر فلم تجد إلاّ طرفاً منه ، وهمت بأن تجلس عليه فانزلقت منه إلى الأرض هي والسبحة السوداء .

سقطت جالسة أول الأمر ثم ارتمت على جنبها فوق النجيلة ، متكورة متفزة ترتعد . ونجحت بعد حين في التخلص من ورطتي مع الكرسي الأصفر فأسرعت اليها وانحنيت عليها لأفحصها ، أمسكت فيها جسماً بارداً كالثلج يتصبب عرقاً ، منتفضاً على الأرض مثلما انتفض الوروار الساقط منذ قليل .



الفَصل الثَّاني وَالعِشرُون

النهاية

طبعاً أتمنى أن أراها الآن ترفرف أمامي ، الفراشة البيضاء التي تزور الحديقة كل يوم ، لكن هذه مطالبة سخيفة للحياة بأن تغير من نظامها من أجل نزوة رجل عجوز مثلي . تلك الفراشة لا تأتي إلا في الصباح والشمس تغمر الدنيا بدفئها وضيائها ، فما الذي يأتي بها الآن والشمس تقترب من المغيب ؟ إن النحل هو الذي يطير في هذا الوقت لكي يتراوج بعيداً في الأعالي الصامتة ، والوروار يتبعه لكي يأكل ما تيسر من النحل المتيم ، على صوت أغنية للكروان تذوب في قمم الأشجار العالية . وهذا الأخير بدوره ما أظنه قد طار وغنى لغرض أنبل بكثير من ذلك الذي من أجله طار الوروار وورور .

في الشرفة على الكرسي القش الأصفر بعد أن طهرته من هباب الياسمين ، وبعد أن سمحت لنفسي بأن أصب في الكوب الخزف البني شيئاً من نبيذ عمر الخيام الأحمر ، قبل أن يملأ كأس العمر – كما قال صاحب النبيذ– كف القدر . الكوب على السور الحجري للشرفة ، وفي الشرفة تطيب الجلسة في هذه الأمسيات الحارة حيث تتحرك بين حين وآخر نسمة متعبة ولا تضيع للفور بين أغصان الشجر ، وحيث تمتزج أنفاس ياسمينة المهذبة بأنفاس تمارا الخليعة في توازن معقول . وناظراً إلى تمارا التي بدأت تفاصيلها تختفي في الضوء الذي أخذ يشحب ، لا أجد مناصاً

من أن أعترف بأن قلبي لم يصف بعد من نحوها كل الصفاء .

نعم أعرف أنه لا يجوز لي وفقاً لأي نوع من المعايير أن ألقي على شجرة تبعة كل ما حدث لي ولأمينة منذ أسابيع ، لكننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن تمارا لم تكن في أي يوم من الأيام مجرد شجرة ، انما هي صديقة بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني ، ومنها يتوقع الإنسان كل ما يتوقع الصديق من الصديق لا سيما وقت الشدة . فأين كانت صديقتي – أو على الأقل أين كان جذعها ، ساعة تلك السقطة المأساوية التي حاقت بنا ونحن نجلس تحتها وفي حماها ؟

بل أنني لا أستطيع – وهذا هو الأدهى – أن ألوم ذلك الكائن الذي كان هو السبب الرئيسي والفاعل الأصلي في المأساة كلها ، وهو الكرسي القش العتيق الأصفر . مذ لحظة قررت أن ألومه فإذا بي أسمع من ناحيته صراخاً مدوياً يقول :

– يا ناس خلوا ف قلبكو رحمة ! حرام عليكو يا مسلمين ! عشرين سنة وأنا شايلك على ضهري ما قلتش بم ، وبرضه موش عاجبك ؟ عشرين سنة وأنا مستحملك صبح وظهر وليل لما هديت حيلي قبل الأوان ، وجاي دلوقت تقول لي أنا غلطان ؟ اتقي الله يا مفتري ! حط ف عينك حصوة ملح يا ظالم ! خلي ف وشك حبة دم يا بارد !

فأمسكت من فوري عن لومه وقد فهمت مشاعره ، وبكل الحنية الممكنة رفعته عن الأرض وأنا أطبطب عليه ، وربما أكون قد قبلته أيضاً . ثم حاولت أن أمرنه على أن يصلب حيله ليمارس وظيفته كسالف عهده ، لكنه أعلن عجزه التام عن القيام بأية وظيفة من وظائف الكرسي ، حتى بدون أن يكون قشا أو أصفر . فما كدت أرفع يدي عنه حتى ترنح وسقط كالقتيل فوق النجيلة الخضراء الضاحكة من خيبته . فلم

أجد ما أفعله به سوى أن أسند ظهره إلى جذع تمارا وأتركه هناك مثل خيال المآتة متظاهراً بأنه كائن حي . ولكي لا يشعر بالوحدة تركت بجانبه كرسي أمينة القش الأخضر ، الذي لم يعد يجد من يستخدمه بسبب غلطة ذلك الدكتور الوغد الشبيه بالفأر .

إذ أصرت أمينة على فكرة الكونسولتو ، فأحضر لها الدكتور فتحي أخصائيين من زملائه يثق فيهما ، وكان أحدهما بديناً أسمر اللون مرحاً قال لأمينة وهو يفحصها :

– عيني عليكي باردة يا حاجة ! يا ريت صحتي زي صحتك !

وطلبوا كل ما يمكن أن يتخيله الإنسان من أنواع الأشعة والتحاليل ، واجتمعوا حولها ليفحصوها فقال الدكتور فتحي في سرور :

– الحمد لله ، ما فيش أي حاجة م اللي كنا خايفين منها .

وأيد الطبيب السمين رأيه قائلاً :

– ألف مبروك يا حاجة ، براءة من كله !

وهنا تدخل الطبيب الثالث الشبيه بالفأر بوجهه الأسمر المشحوب وشاربه النافر ، فضحك ضحكة جافة لا طبية وقال ساخراً :

– ههأ ، ده على كلام أجهزتنا !

فلم يعلق على كلمته أي من زميليه ، وأدرك هو غلطته فتحول إلى الكلام بالإنجليزية . وملئوا الروشتة بأسماء الأدوية وجهاً وظهراً ، وقالت هي بعناد أعجبني !

– موش بس أعرف بتعالجوني من إيه ؟ !

فقالوا لها إنها الأعصاب المتعبة التي لم تجد ما تعبر به عن نفسها سوى تلك الدوخة التي تشكو منها ، وما هي إلا أيام من العلاج والراحة في السرير والغذاء الصحي حتى تسترد صحتها وتنهض كالحصان .

– سي تس ! سي تس : سي تس !

صرصار من صراصير الحدائق أرسل صفيراً قصيراً مستطلعاً ، فلما لم يسأل فيه أي صرصار آخر خجل من نفسه وسكت .

– كرررر ! كرررر ! كرررر !

صوت العجوز موني وهي تقرأ غير بعيد ، وأمينة تؤكد أنها قراءات ذات طابع ديني ، مثبتة بذلك أن الالهة باسيت ما زالت تعيش بيننا كربيبة لربة السحر إيزيس .

– سي تس ! سي تس ! سي تس !

صفير جديد يجرب به الصرصار حظه إذا كان هو نفس الصرصار ، فما كاد يطلقه هذه المرة حتى تجاوب معه للفور كورال من أصوات الصراصير ، آحاد منها أول الأمر ثم عشرات ، ثم مئات ثم آلاف . العقل العام للصراصير وقد قرر أن يتعاون جميع أفراده فجأة وفي نفس الوقت في ترديد نفس الأغنية .

ولعنة الله مرة أخرى على ذلك الدكتور ، إذ سرحت أمينة ببصرها في ملاءة السرير البيضاء وهي تداعب سبحتها الطويلة السوداء ، ثم توقفت فجأة عن التسبيح لكي تقول متسائلة :

– هو موش بيقول ان الكلام ده على أجهزتنا ؟

فقلت مستعبطاً :

– هو مين ؟ .

– الدكتور .

ووصفته وصفاً لا يترك أي مجال للشك في هويته ، ثم واصلت أفكارها بقولها :

– يعني ممكن أجهزتنا دي تكون غلطانة .

فلم أعلق بشيء بينما استرسلت تقول :

– يعني ممكن أكون عيانة وعيايا موش طالع في أجهزتنا !

فأصررت على الصمت ، بل إنني غادرت الحجرة متعللاً بسبب أو آخر ، وأن كنت أعرف من خبرتي بأمينة أنها لن تترك الأمر يتوقف عند هذا الحد . فلما كان اليوم التالي أفرغت ملعقة دواء في فمها وهزت رأسها متخلصة من مرارته ثم قالت :

– يعني ممكن جداً أكون عيانة بمرض خطير وما حدش داري !

فلما رأتني مصراً على الصمت رجمتني بنظرة غيظ وقالت !

– ما بتردش ليه ؟

فقلت متنهداً :

– أقول إيه لواحدة عاوزة تعيي نفسها بالعافية ؟

– أنت موش سمعت الراجل بودنك ؟

– أيوه سمعته ، وممكن جداً لجهاز ولا اتنين انهم يغلطوا . لكن موش معقول كل الأجهزة تغلط نفس الغلطة ف نفس الوقت !

فقالت مقاوحة :

– مش معقول ليه ، ممكن !

وسكتت إلى اليوم التالي ثم قالت لي بصوت أكثر من المعتاد نعومة :

– أسألك سؤال وتجاوبني بصراحة ؟

فثقل قلبي بين أضلاعي ، إذ كنت أعرف جيداً ما هو ذلك السؤال .

وواصلت هي باسمة :

– بس ما فيناش من زعل .

فقلت في يأس :

– ربنا ما يجيب زعل .

فترددت لحظة حتى استجمعت شجاعتها وقالت :

– تزعل مني لو سافرت وسبتك جمعتين تلاتة ؟

ثم أضافت بسرعة مستوثقة :

– تزعل قوي يعني ؟ !

فقلت وأنا أعرف الجواب :

– تسافري على فين ؟

– وأنا لي مين غير حبيبي حمادة ؟

وشرحت لي كيف أن تذكرة الطائرة معها ، والإقامة هناك عند حبيبها (أرجو أن يكون في أمريكا مقابل غذائي للفول والطعمية) ، ولتغطية المصاريف الطبية ستبيع اسورتين وعددا من الغوايش المركونة عندها في قاع الدولاب بلا فائدة فماذا ينقصها ؟

– والنبي لولا حاملة همك أنت لسافرت النهاردة قبل بكرة ! أشوف الأجهزة اللي هناك ح تقول إيه واطمن على روحي .

فتذكرت ذلك العالم النفسي الذي اتهمني بأنني أتمنى موتها لأنني أسرف في القلق عليها ، فماذا يقول اليوم لو رآني أفعل العكس فأسرف في الاستهانة بأمر مرضها وأحرمها من رحلة علاج تشتهيها حتى لو كنت أعرف أنه لا جدوى منها ؟

قلت في مزيج من الإخلاص والاستسلام :

– ما تحمليش همي يا أمينة ، سافري إذا كنتي عايزة .

وفي حجرة النوم الصامتة ، ولأول مرة منذ سنوات طويلة ، وجدتني وحدي أشبه بطفل صغير خائف . والبسمة التي تغالب الظهور في صورة إبراهيم على الحائط خيل إليّ أنها قد ظهرت فعلاً ، وبين النوم واليقظة أتاني صوت الولد المفقود يقول :

– أنت ليه زعلان يا بابا عشان ماما جاية لي ؟

فقلت له في دهشة :

– أنت مين قال لك انها جاية لك ؟

– موش ركبت الطيارة النهاردة الصبح ؟

– آه لكن موش جاية لك ، دي رايحة لأخوك في أمريكا . هي الناس بتسافر عندكو ف طيارات ؟

– أنا ما قلتش كده !

– أمال قلت إيه ؟

– ولا حاجة !

وراح يبتسم لي عن أسنان بيضاء لامعة وسط وجه تحول فجأة إلى فحمة سوداء .

– آووو ! آووو ! آووو !

صوت غليظ علا فجأة على صوت الصراصير ، صوت ضفدع أرجو أن يكون صديقي ضفدوع . وللفور تبعته سائر الضفادع وانضمت بالغناء إلى هذا الحفل المفتوح ، صوتها الغليظ الأجوف هو خير خلفية لسرسعة الصراصير . أرجو أن تكون بركة المياه التي وجدتها الضفادع مكونة من ماسورة مياه مكسورة لا من طفح المجاري ، وأن كان مستبعداً طبعاً أن يتأثر الصوت بنوعية الوسط الذي ينبعث منه .

وهذا الضجيج كما يشيعون هو نداء من الذكور إلى الإناث بقصد اغوائهن ، الأمر الذي إن صح فهو دليل على أن ذوق الضفدعة غريب نوعاً . وعلى أي حال فجدير بنا ونحن نتوسع في تطبيق الأفكار الفرويدية على الجنس البشري ، أن نقتصد في اقحامها على أجناس أخرى محترمة مثل جنس الضفادع .

– كوررر ! كوررر ! كوررر !

ربيبه إيزيس تحييك يا أمينة ، وتدعو لك دعوة مخلصة اعتقد أنك محتاجة اليها ، حيث تعيشين وسط شعب – إذا صدقت أفلامه – نصفه لصوص وقطاع طرق والنصف الآخر يجري تحت سيل من الطلقات النارية التي لا تنقطع . وأرجو أن يكون حمادة موجوداً معك عند اللزوم ليساعدك على الجري ، في البلوفر الصوف الأزرق الذي سهرت بجانبي تنسجينه بجانب المدفأة المشتعلة . ترى هل نشترك مرة أخرى في تلك الجلسة اللطيفة الدافئة ؟ ولماذا لم تكتبي لي حتى الآن إلا ذلك الأخطار الموجز بأنك قد وصلت إلى لوس انجيلوس بالسلامة ؟

– طاخ ! طاح ! طاخ !

صوت يبدو أنه يحتاج إلى وقت طويل لكي يُدفن في أعماق عقلي الباطن مع سائر الجثث المدفونة هناك . أمينة نفسها بكت يومها حيث جلست على سريرها ، وقالت بصوت تخنقه العبرات :

– صحيح ما باحبهاش لكن بتقطع قلبي !

صوت طرقات الفأس على جذع الطويلة الرشيقة رينا في ذلك اليوم المشئوم ، ليكسروه . فلما كسروه ألقوا بحبل طويل على عنقها ليخنقوها ، وبه راحوا يجذبونها لتسقط حيث قدروا لها من أرض الشونة . لكنهم أخطئوا في حساباتهم طبعاً ، وما كان لرينا أن تسقط حيث قدر لها المجرمون . هي مالت وفقاً لرغبتها الخاصة نحو البناء الأصفر المشقق ، متجهة مباشرة إلى النخلة الغبراء رفيقة عمرها في الشونة ، أحاطتها بغصونها واحتضنتها وكأنما أقسمت يميناً ألا تصل إلى الأرض إلا بها . وذرة واحدة من المقاومة لم تظهرها النخلة العتيقة كأنها كانت تتطلع من زمان

وبشوق إلى هذا اليوم المفترج الذي تريح فيه جذعها المائل على صدر أمها الأرض .

أما عنك أنت يا جمعة فيؤسفني أن أصارحك بأنه لا يسعني إلا أن أضحك عندما أحاول أن أتخيل شعورك وقد فوجئت بنفسك طريحاً على الأرض وفوقك شجرتان أحدهما طويلة رشيقة وكانت مهندمة ، وفي حضنها نخلة غبراء تتدلى منها سباطة بلح أحمر تناثرت حباتها على أرض الشونة ، فراح الرجال يلتقطونها ويقرشونها وهم يحاولون تخليصك من الشجرتين .

حادث كان ممكناً جداً أن يموت فيه جمعة ، بل الغريب حقاً أنه لم يمت . فمن هنا يمكننا أن نفهم المزيد عن طبيعة الرشيقة رينا ، كيف أنها لم تكن رشيقة وجميلة فحسب وانما كانت في الوقت نفسه — على عكس معظم الجميلات — رحيمة القلب أيضاً — صحيح أن جمعة قد طاب نفساً بأن يذبحها بعد تلك العشرة الطويلة ، لكنه كان مضطراً إلى ذلك في سبيل لقمة عيشه . فكان كافياً في عرف رحيمة القلب رينا — بدلاً من عقوبة الموت القاسية — أن تكسر له رجلاً واحدة لا غير ، ورجله اليسرى لا اليمنى زيادة في الرأفة به .

أسبوع واحد قضاه جمعة في المستشفى ثم خرج بتلك الساق المجبسة البيضاء . فذهبت لأزوره في الشونة حيث وجدته جالساً أمام البيت المشقق ممدود الساق وحوله عدد كبير من العصافير تنقر في الأرض مع الفراخ التي ربما كانت بينها تلك الفرخة التي تريد دائماً أن تبيض . ومن داخل البيت ترامى إليّ صوت الطفل الجديد وهو يبكي ، وبكاؤه قد بدأ يتحول إلى ذلك الصرير الصديء القديم ، وإن لم يصل بعد إلى درجة الثبوت على كلمة آه .

وقال لي جمعة باسماً وهو يتحسس ساقه المجبسة !
– طب والنبي أنت فيك شيء لله يا بيه !
فسرتني الكلمة وإن كنت لا أعرف سببها ، واسترسل قائلاً :
– ده ذنب الشجرة اللي سيادتك بتحبها ! دى جزاتي عشان قطعتها !
وبالرغم من سخافة الفكرة فقد أشاعت في نفسي نوعاً من السرور الخفي ، واسترسل :
– ولما جيت أقطعها النوبة اللي فاتت ، تاني يوم شحاتة مات ! والحمد لله اللي جت على أد كده ، ده لولا ان قلبك طيب كنت رحت فيها !
وسوف يحتاج إلى عكاز طبي لمدة لا يعلمها إلا الله ، وأرخص عكاز طبي في السوق ثمنه عشرة جنيهات . وكان يعرف بخبثه الفطري أنني محتاج إلى أن أدفع له نصف هذا المبلغ على الأقل ، لكي أخفف من مشاعر الذنب التي نجح بكلامه في أن يغرسها في نفسي .
– كررررر ! كررررر ! كررررر !
لا شك يا مولي أنها كانت لفتة حلوة منك ، أن سمحت لصوتك الحبيب بأن يبقى معي في وحدتي . نعم أعرف أنه كان أفضل عندك أن تدفني تحت زهيرة وتمارا لتكوني معنا دائماً كسالف العهد ، لكنني كرهت لك أن تكوني موطئ الأقدام طول الوقت . وأنا واثق من أنك ستكونين سعيدة هناك في ذلك الركن الأمين بجانب ليفا ، إذ أشعر بأنك أنت الأخرى – لا تكذبيني من فضلك – كنت تريدين أن تقولي شيئاً .
– أنا عارفة أني ح اموت قبلها .
هكذا كانت أمينة تحب أن تقول دائماً ، والحمد لله الذي خيب ظنك يا أمونة . وإذا سألتني كيف وقع الأمر فأنا في الحقيقة لا أعرف على وجه اليقين . كل ما أعرف هو أنني كنت قد قطعت الطرقة الطويلة

ووصلت إلى الصالة في طريقي إلى المطبخ لكي أعمل الشاي ، إذ حانت مني لفتة نحو المدفأة فرأيتها ملقاة هناك على البساط النبيتي العتيق . نعم كانت ملقاة هناك لا نائمة ، إذ كانت موني تعرف دائماً كيف يجب أن تنام . كانت تضم ساقيها وذراعيها وذيلها وتريح ذقنها البيضاء على ساعدها الأسود ، وأذناها مطرطقتان حتى وهي في عز النوم . أما هذه المرة فكانت القطة ساقطة هناك لا نائمة ، مترامية الأطراف بدون أي محاولة نظام فتقدمت نحوها متلصصاً لسبب لا أفهمه ، ومرة أخرى وجدتني أجابه ذلك السكون الرهيب الذي خبرته من قبل في صوت سيده – اللانبض واللاحركة واللاإنتماء نهائياً إلى نسيج هذا العالم الحي . فكاها متباعدان مثل فكي تمساح ، وأنيابها بارزة وفمها كهف كبير مظلم . مستحيل طبعاً أنها كانت تريد أن تلتهم شيئاً ، ومستبعد أنها كانت تعوي ، فما من تفسير للأمر الا أنها كانت تتثاءب . في جسمها الواهن المتعب شعرت بدبيب أقدام الموت الباردة فقصدت إلى المدفأة تنشد الدفء ، مؤمنة حتى النهاية بأنها قادرة على إشعالها بقوتها السحرية ، هي الالهة باسيت روح إيزيس ربة السحر وهناك أمام المدفأة توقفت لحظات تتساءل أين هي وماذا تفعل ، ثم وجدت نفسها تتهالك على الأرض فتهالكت ، وفي هدوء وكبرياء تثاءبت وماتت ، وحدها هناك على البساط النبيتي العتيق .

نعم كنت أحب دائماً أن أشفع هذا الصوت بالمسح في حنان على ظهر صاحبته الناعم الأسود ، وبتحسس أسفل عنقها الأبيض المرتعش بذبذبات القراءة ، أما الآن فليس أمامي سوى أن أستمتع بالصمت وحده .

وفي آخر الشونة وهج لإحدى جمرات الفحم في جوزة جمعة ،

أتخيله يسندها إلى ساقه المجبسة لكي يصلح شأن الجمرات ويسعل .
والكوخ الحجري شبح في الظلام لقبر كبير ، في جوفه جمعة وأسرته
العصافير والأسمنت . شيئاً فشيئاً بدأت تستبين زواياه وترتسم على سماء
آخذة في الاصفرار ، مع ظهور ذلك الجسم النحاسي فوق سقفه مثل
عين فضولية تتلصص على أتباعها من مجاذيب القمر . الربع الأخير
من شمامة اسماعيلاوية كبيرة صفراء بلون الشواطىء الرملية للترعة ،
حيث ألقى بنفسه ليبترد ذلك الذي جاء من أقصى سيناء يجري . بل
هي كتلة سوداء متفحمة سرقت من الشمس بريق شعاع أصفر ، جامدة
هامدة جرداء لا حياة فيها ، وآثار بين بحر العواصف وبحر الظلمات
لأحذية المغامرين الأمريكان الذين هبطوا هناك يوماً . عسى أن تكون
الأجهزة التي وصلت إلى القمر قادرة على أن تصل إلى سر دوختك يا
عزيزتي أمونة .

– سي تس آووو ! سي تس آووو ! كررررر !

الأصوات تتداخل وتندمج وتذوب في صوت واحد شجي وجليل ،
وصوت جديد بدأ يتسلل إلى المعزوفة في حياء أول الأمر ثم في جرأة
وانطلاق . شبيه بصوت الوتريات وهي في ذروة نشوتها ، وبحيرات
خضراء معتصرة من جوف البحر الأزرق العظيم الفائر . شعاع ضوء
تجمد في الفضاء بعد أن مرروه خلال وعاء من البللور مليء بالنبيذ الكوني ،
الذي بدءوا في تعتيقه منذ مليون سنة ضوئية . فلو أن أمينة هنا لأقسمت
أن هذا صوت الملائكة وقد تنزل كورال منها ليبارك حديقتنا الصغيرة
الطاهرة . هذه أسهل عندها من أن تعترف بأن هذا هو صوت الشجر
يسمعه وقتما يشاء لمن يشاء من أحبابه . وأنا واثق من أن ليفا قد قالت

الليلة كلاماً ضاع في هذا الزحام ، حيث وقفت تداعب بجذورها هيكل موني المتثائبة إلى الأبد .

ونبرة معدنية ميزتها أذني وسط كل تلك الأصوات ، وماذا يمنع النمل من أن يشترك هو الآخر في الزفة من أعماق جحوره الرطبة المظلمة ؟ وهذا الصوت الآخر الرقيق الشجي ، مثل قطرة ندى أو بقعة ضوء ترقص تحت تمارا ، المتسلل إلى القلب من خلال غلالة رقيقة من الرحيق ، من يمكن أن يصدره سوى الفراشة الصغيرة البيضاء ؟

وفي الفضاء البعيد صدى مرتعش لضحكة صغيرة لا خشنة ولا ناعمة ، مصحوبة بدعوة لي باكتمال العقل . وأصوات أخرى غريبة بدأت تتطفل على المعزوفة وتفسد جلالها ، فلعله يحسن بي أن أنهض للنوم بعد أن أرشف القطرة الأخيرة في الكوب الخزف البني . نعم يحسن بي أن أنهض وبسرعة قبل أن أتورط في مهاترة سوقية مع ذلك الصوت الذي أسمعه آتياً من بعيد وهو يقول لي بضحكته الوقحة أن هأوهع أو .

المحتويات

صفحة

صفحة

مطابع الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN